روايات عبير
آن هامبسون
الثأر

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 28

الثأر

الثأر عادة متأصلة في أمكنة كثيرة من العالم . وللثأر تقاليد لايفهمها سوى الذين ولدوا وعاشوا في المجتمعات المغلقة التي تعطي أهمية كبيرة للتقاليد مهما تنافت مع التطور... والمنطق .

وتوني التي وجدت نفسها في جزيرة كريت ذات يوم وخنجر الثأر مسلط على عنقها، لم تستسلم . لم تصبح الضحية . بل قاومت حتى انقذها داروس حفيد العجوز الحامل خنجر الثأر... ولم يكن هناك سوى حل واحد : ان تتزوج داروس فلا تسري عليها تقاليد الثأر... عندئذ قررت هي ان تثأر . على طريقتها الانكليزية الباردة ... فهل تستطيع ؟ وهل يكون الحب باب الخروج الوحيد من هذا المأزق ؟

١ ـ خنجر في كريت

جلست توني فرعان الى طاولتها المعتادة في ملهى تافيرنا تنظر الى الراقصين وتنتظر تقديم الغداء وفيا عدا اندرولا التي كانت تساعد والدها على إدارة المطعم ـ كانت توني المرأة الوحيدة هناك.

وعادت الذاكرة بها الى الماضي... وتذكرت صديقتها منذ عامين حين كانتا تقضيان عطلة في اليونان تقول : إنني أكره الجلوس في مثل هذه المقاهي... ألمح على وجه كل رجل علامات الرجاء والرغبة!.

يومها ضحكت توني وهي تسمع صديقتها تضيف: إذا كان هؤلاء الرجال يودون فعلاً إمتاع عيونهم بجمال المرأة فلماذا لا يصطحبون زوجاتهم معهم؟

وبعد ذلك بعام واحد اشتاقت توني الى زيارة اليونان مرة ثانية، وكانت قد تقدمت بطلب للحصول على وظيفة في كريت حيث يقيم عمها ـ الذي تزوج بفتاة يونانية بعد الحرب ـ واستقرّ هناك... وكان صاحب الفندق الذي تعمل فيه يحاول دائماً إغواءها والخروج معها، الا أنه من حسن حظها انها وجدت بعد فترة قصيرة في صاحب شركة سياحية رجلاً أقل ميلاً الى الغزل... وكان هذا العمل الجديد فرصة مناسبة لتستغل اللغتين اللتين تعرفهما جيداً الانكليزية واليونانية.

وقد ألفت توني الآن الرجال الذين يترددون على مقهى بافلوس والذين كانوا يشركونها دائماً في مناقشاتهم بعدما سرّتهم معرفتها بلغتهم.

وبمجرد أن ظهرت اندرولا تحمل غداء توني ـ جلس شاب كريتي الى مائدتها فردت عليه تحيته وهي تبتسم.

وقال ملاحظاً:

«سمك البربوني يبدو طيباً ـ أعتقد أنني سأختار الغذاء منه... »

ووضع الشاب جريدته على المائدة وكانت تحمل عنواناً كبيراً لفت نظر توني... وانطلق الشاب الكريتي يقول في لامبالاة:

«لقد شاهدت هذا الحادث...»

واتسعت عيناها في فزع وهي تقول:

«أرأيته فعلاً... ياله من حادث مروّع.»

«كان الحادث أخذاً بالثأر ـ لقد دخل الرجل الى المقهى الذي كنت جالساً فيه وأغمد السكين في ظهر الشاب... وانتهى الأمر كله في ثوان.»

وارتعدت فرائص توني، كانت قد أصيبت بالذهول عندما سمعت لأول مرة بحادث ثأر، ودهشت كيف تستمر مثل هذه العادة الوحشية في بلد كاليونان لكن هذه العادة بقيت فقط في ماني، وكريت... وبرغم ان القضاة المستشارين مصممون على قمعها الا أنه يتعين عليهم ان يتصرفوا بحذر شديد عند معالجة مثل هذه العادة القديمة الراسخة. ومع ذلك فان هناك أحكاماً تصدر الآن بينما جاء وقت كانت فيه عملية الأخذ بالثأر مقبولة وكان القتلة يطلق سراحهم.

والتقطت عيناها بسرعة السطور التي تلت عنوان الصحيفة وقرأت : علم غلافكوس اخيراً أنه منذ عشرين عاماً كان جد الشاب قد قتل أحد أقاربه... وعندئذ صمم غلافكوس على الانتقام. لأنه حسب العادة لابد أن تسيل الدماء.

وتمتمت توني:

«إن مايحدث ليس فيه شيء من المدنية ياسافاس، فلماذا تبقون على هذه العادة؟»

وهز كتفيه قائلاً:

«إن كثيرين منا لا يعتقدون أن ذلك صواب... لكنه من سوء الحظ أن هناك أيضاً من يؤمنون بأخذ الثأر... وخاصة المسنين الذين لايزالون يتمسكون بالتقاليد، ولذلك فإن هذه العادة مازالت قوية في كثير من القرى.»

«لا أصدق أن مثل هذه العادة لايمكن رفضها فوراً. إن اليونان برغم كل شيء، هي

البلد الذي يرتبط في ذهن المرء ببدايات المدنية الغربية ومع ذلك فإن هذه العادة بدائية تماماً.

وصفق سافاس بيديه كما يفعل كل اليونانيين محاولاً لفت نظر أندرولا. كانت تحاول أخذ طلبين مرة واحدة ومالت برأسها في حركة اعتذار لأنها جعلت سافاس ينتظر، وأضاف سافاس:

«من الواضح أنها أثر من آثار الوثنية... ربما كنا على قدر كبير من المدنية والثقافة، ولكن لاتنسي أننا كنا نعبد الأوثان...»

وقطبت توني جبينها وهي لاتزال غير قادرة على تقبل أن هناك رجلاً يمكن أن ينظر الى القتل على اعتبار أنه واجب. وتطلعت الى الراقصين الذين هم كانوا يؤدون رقصة البندوزاليس، وهي رقصة الحرب، كان يؤديها في الأصل العسكريون. وأخذت ترقب الراقصين مبهورة، فلا شك أن هناك مناسبات تتكشف فيها وثنية اليونان القديمة.

وضحك سافاس من تعبيرات وجهها، وقال:

«مثل هذا الوجه الجميل ينبغي ألا يتجهم أبداً.»

ولم تعبأ توني بهذا الاطراء.. فلم تقابل أبدا يونانياً لايتقن الغزل والمداهنة.

وقالت وهي تمسك بقطعة السمك في صحنها:

«أفكاري هي التي تجعلني مكتئبة... ولو كنت قاضية هنا، لأصدرت أحكاما طويلة جداً بالسجن، إن هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على عادة الثأر الرهيبة.

«ولكن لماذا يحكم على شخص بعقوبة صارمة بالسجن عندما تكون أسرته هي التي أرسلته لتنفيذ القتل؟ وعندما يكون هو على يقين أنه ينفذ واجبه؟»

واعترفت توني في تردد بعد تفكير:

«أفهم هذا الى حد ما، لكنه واضح أن هذه العادة يجب أن يقضى عليها.»

«سيمضي وقت طويل، الا تعرفين أن هناك من يعتقد بضرورة تنفيذ الانتقام حتى لو كان القتل قد حدث بدون عمد...»

ونظرت اليه في استنكار وهي تقول:

«لا بد أنهم متعصبون اذن!»

ورد سافلس:
«من يعتقد في مثل هذه العادة لابد أن يكون متعصباً»
كانت توني لاتزال تفكر فيما قاله سافلس وهي تغادر المقهى ولم تكن تدري أنها ستكون بعد قليل متورطة في عادة الأخذ بالثأر اليمانية في كريت...

بعد ثلاثة أسابيع على ذلك، اقترب منها رجل ـ اثر اغلاقها المتجر الذي تعمل فيه واتجهت الى سيارتها ـ وطلب منها أن تنقله الى منزله وهي في طريق عودتها، كان يونانياً، وبعد أن استفسرت منه عن وجهته، ابتسمت له وفتح باب سيارتها، وبرغم أنه كان عليها أن تخرج عن عادتها وافقت على اصطحابه معها لأنه كان رجلاً مسناً جداً...

وسألها:
«هل تعملين في وكالة بترو السياحية؟»
وابتسمت وهي تقول:
«نعم»
حتى في مدينة هيراكليون الكبيرة كان كل شخص يتدخل في شؤون غيره.
وسألها:
«هل تعجبك هذه الجزيرة؟»
«تعجبني جداً في الواقع»
«حفيدي يعيش في رودوس، إنها جزيرة جميلة أيضاً، هل ذهبت إلى هناك؟»
وهدأت توني سرعة سيارتها عند إشارة المرور. ثم عادت إلى السرعة وسألت الكهل قائلة:
«كلا...ولكن هل تقيم في هيراكليون بصفة دائمة؟»
وأخذت تتطلع الى الرداء الوطني الذي يلبسه الشباب هنا لايرتدون أبداً هذا الزي هذه الأيام. المسنين من الرجال يعتبرونه اكثر راحة من البنطلون.
«انا اسكن في قرية بعيدة عن هنا بعيدة جداً، يمكن أن تقولي إنها معزولة تماماً عن المدينة»
«وهل تعجبك الاقامة في هيراكليون؟»
«اعتدت عليها الآن»

واستمر الحديث بينهما حول هذه الموضوعات العابرة الى أن وصلا الى البيت الصغير المكعب الشكل.
«ألا تتناولين مشروباً منعشاً معي؟»
هذا السؤال توقعته توني وقبلت الدعوة برغم العمل الكثير وكتابة الرسائل التي تنتظرها. لكن كرم الضيافة اليوناني الذي يتسم بالتلقائية والاخلاص لا يجب رفضه أبداً. فقالت:
«أشكرك جداً. هل وقفة السيارة هنا مناسبة؟»
«تقدمي بها مسافة أخرى إلى الأمام ثم أطفئي أضواءها. وتقدمها وهما يصعدان السلم، وفتح الباب، وطلب اليها أن تدخل إلى غرفة الجلوس حتى يفرغ من إعداد المشروبات وقالت توني وهي تتجول في الغرفة:
«أنت تعيش بمفردك هنا»
«بمفردي تماماً، توفيت زوجتي، وتزوج كل أبنائي»
وجالت ببصرها ارجاء الغرفة. إنه الأثاث الثقيل المعتاد والتحف الثمينة. والأيقونات المعلقة في الجدران. والتطريز على الكراسي. ورفعت نظرها على الجدار ورأت أثراً لشيء أزيل ثم انتقلت نظرتها إلى المائدة وإلى الخنجر الموضوع هناك. كان منظره كريهاً برغم أنه موضوع في غمده، وكان العبوس يبدو على وجهها عندما دخل الرجل المسن أخيراً وهو يحمل صينية... وعندما مدت يدها لتأخذ فنجاناً صغيراً من القهوة التركية، أزاح جانبا وأعطاها الفنجان الآخر وأوضح لها بسرعة:
«هذا الفنجان قليل السكر، والانكليز لا يحبون السكر الكثير»
وتنبهت توني إلى الموقف فجأة بعدما لاحظت ناراً تتوهج في عيني الرجل. كان شيئاً غريباً، لكنها لم تستشعر مثل هذا الخوف من قبل وهي في صحبة يوناني حتى ولو كان شاباً. الا أنها أحست بالقلق مع هذا الرجل المسن. وإن لم يكن شعوراً بالخوف فهو على الأقل شعور لا يبعث على الراحة.
«ألا تجلسين؛ اشربي قهوتك» واقترب منها، كان طويلا نحيلا وشفتاه مزمومتان، ورفع الفنجان الى شفتيها وقال:
«اشربي قهوتك»

لكنها أعادت الفنجان الى الصينية.

«لا اعتقد أنني سوف أبقى هنا»

قالت هذا بهدوء ونهضت واتجهت الى الباب.

وقال الرجل إنه مرصد.

واستدارت ببطء ونظرت اليه. اصدقاء توني في بلدها يعرفون عنها أنها لاتخشى شيئاً. وتستطيع مواجهة أي موقف. فقد كانت تنحدر من سلالة عسكريين مقاتلين شجعان حصلوا على أوسمة. وكانت سمات هذه الشجاعة المتأصلة تبدو على كل قسمات وجهها الجميل. وانعكست على نظرتها الثابتة وعلى نبرات صوتها الهادئة وهي تقول له:

«لا أعرف ما تنوي عمله. ولكنني أؤكد لك أنني أستطيع حماية نفسي. افتح الباب من فضلك.»

وسادت فترة من الصمت ثم قال الرجل برقة:

«سوف أقتلك.»

ثم رانت فترة صمت أخرى. وبصورة آلية اتجه نظر توني الى المائدة وقالت:

«عليك أن توضح ذلك. إنك حتى لاتعرفني.»

ولم يكن يبدو في نبرات توني الهادئة أي بادرة خوف. كان الرجل مسناً جداً. ولم يخطر في بالها أبداً أنه يستطيع أن يتغلب عليها بقوته.

وقال الرجل:

«أعتقد أنك أقمت في هذه الجزيرة أكثر من عام؟»

كان الرجل يقف قريباً من المقعد حيث كانت تجلس قبل أن تهب واقفة ومتجهة الى الباب وبدأت يداه تنقلصان وتتحركان.

وقالت توني:

«هذا صحيح.»

«ولا بد أنك سمعت عن الأخذ بالثأر إذن.»

«بكل تأكيد سمعت عنه... ولكن هل يعنيني ذلك في شيء؟ يبدو انك ارتكبت خطأ... لابد أنك اخترت شخصاً غير الذي تقصده...»

«اسمك انطونيا فريمان»

وردت في حيرة ودهشة.

«نعم لكنك لاتعرفني... وأنا واثقة جداً أنني لاأعرفك.»

وأخذت تتفرس في ملامحه.

«كان شقيقك هنا يقضي عطلة منذ شهرين... أليس كذلك؟»

وشحب وجهها قليلاً، وتذكرت ماقاله لها سالفاس. ثم رفعت خصلات شعرها عن جبهتها المبللة بالعرق. وقالت:

«نعم حضر ليزورني.»

«لقد قتل شقيقتي العجوز المشلولة.»

«كانت مجرد حادثة. ولم يكن قتلا متعمداً. وقد برأته محكمتكم هنا في دقائق.»

«صحيح برأته المحكمة. ولكنني لم أحكم أنا ببراءته. لقد كان يقود سيارته بإهمال. لأنني لا أستطيع الذهاب الى انكلترا لقتله. فيجب أن أقتلك أنت بدلا منه. إنه واجبي طبقا لعادة الأخذ بالثأر. أن نسيل دم القاتل أو أحد أفراد عائلته.»

وهكذا واجهت توني أحد المتعصبين ممن تحدثت عنهم مع سالفاس. كان واضحاً أن عقلية الرجل متخلفة. وقالت توني بأسف حقيقي:

«اعترف أن حظ شقيقتك كان سيئاً... سيئاً للغاية حقاً. ولكن تذكر انها نزلت الى شارع مظلم تماماً بدون إعطاء أي تحذير. ونظراً لأنها كانت ترتدي الملابس السوداء فإن شقيقي لم يرها...»

«إننا نسير دائماً في الشارع... ونساؤنا دائماً متشحات بالسواد. خاصة المسنات منهن كما تعرفين»

«ولكن شقيقي لم يكن يعرف ذلك. وكيف له أن يعرف؟ كان قد وصل منذ فترة قليلة.»

واستطردت تقول في نبرات رقيقةلاصدقني وبرغم تبرئته الا انه مازال يشعر بالذنب. وفي كل رسائله لي مازال يشعر بالأسف لأنه جاء الى الجزيرة. كما ان والدي ووالدتي لايزالان يعانيان من اضطراب معنوي شديد بسبب الحادث.»

ودمعت عيناها الخضراوان وهي تفكر في المأساة التي أصابت أسرتها بسبب تصرف السيدة العجوز المشلولة التي وقفت أمام سيارة شقيقها. كان اخوها وأبواها كما قالت توني لايزالون يشعرون بالتعاسة. أما توني فلم يرَ عليها

يوم بدون أن تتذكر فيه هذا الحادث المؤسف.

ورد الرجل:

«ولكنهم سوف يشعرون بانزعاج أكثر لوفاة ابنتهم فسوف تموتين بالسكين».

وألقت توني نظرة على فنجان القهوة الموضوع على الصينية، وبادرها بقوله: «كنت أفضل أن أجعلك تغيبين عن وعيك لأنك امرأة، لكن ذلك لايهم الآن، فلن تتألمي لفترة طويلة، لقد قتلت كثيراً من الرواشي، ولم أدعها تعاني فترة أطول مما يجب».

ولمعت عينا الرجل بالشر المتوقع وقال:

«هل تخافين؟ قلت لك الآن إنك لن تتألمي طويلاً».

وانتزع الرجل الخنجر عن فوق المائدة، وكان يحاول أن يخرجه من غمده عندما قررت هي أن تتصرف، وكادت تتفوق عليه بقوتها، ولكنه استعاد توازنه. وكانت الثواني التي أعقبت ذلك كفيلة بأن تجعل توني تعترف بأن مظهره يخدع من يراه، فقد يكون جسده هرماً، وعقله مختلاً، لكن عضلاته مازالت قوية..

ونظراً لأن توني تدرك تماماً مدى رسوخ هذه العادة السادية توقعت ألا يتراجع الرجل.

برغم أنها كانت تعلم تماما أنها تواجه الموت.. الا أنها أحست بالدهشة عندما استطاعت في النهاية أن تسيطر على قوة الرجل بعد صراع كبير.

ومن خلال الموقف التي عاشته مع هذا الصراع... صراع البطل الذي يواجه أمراً لا يمكن تجنبه - استرجعت في مخيلتها كل ذكرياتها مع أفراد أسرتها، وتصورت رد كل واحد منهم على حدة عندما يعلم نبأ موتها. شقيقها هيو سوف يعاني من الشعور بالذنب طوال حياته فهو المسؤول عما حدث لها بصورة غير مباشرة..وأمها... لن تفيق من الصدمة. وأخذت توني تتذكر وهي مرهقة كيف توسلت اليها أمها لئلا تسافر الى الخارج وخاصة الى الشرق، لقد حذرتها من الأخطار الكبيرة هناك، ولكن توني ضحكت وقالت لها:

ما هذا السخف يا أمي... وهناك بام شقيقة توني الأرملة وأطفالها. يالهم من شياطين.. ولكن توني تحبهم كثيراً. ديفيد في التاسعة ودويسي في الثامنة ولوسي في السابعة وقد فقدوا أباهم منذ أكثر من عامين. وأخيراً كان

هناك والد توني الذي تحبه كثيراً. كانت رسالته الأخيرة تثير الأسى... أخبرها أن تجارته الرابحة تواجه الافلاس بعد فتح المتجر الكبير الذي يبيع كل شيء، على الناحية المقابلة من الشارع. كان الحل الوحيد لخلاصه من هذه الأزمة هو الشراء بكميات ضخمة وهذا يحتاج الى رأس مال لا يقلّ عن خمسة آلاف جنيه.

الا أنّ تتابع ذكرياتها عن أفراد أسرتها توقف فجأة عندما تمكن الرجل من إخراج الخنجر من غمده وإشهاره في وجهها... وتمكنت توني وهي تقبض بقوة على رسغ يده من إبعاده عن قلبها. لكن قوتها تداعت بسرعة وانتابتها مشاعر اليأس بعدما أحست أنها لن تستطيع التغلب على رجل مشحون بالنزعة إلى القتل.

وشعرت بدوار وكادت تسقط مغشيا عليها.

وفجأة سمعت أصواتاً على الجانب الآخر من الباب، واستطاعت في محاولة يائسة أخيرة أن تدفع الرجل بقوة الى الخلف فسقط على الأريكة.

«أبي... أبي... افتح الباب ودعنا ندخل».

كانت هذه الكلمات باليونانية ولكن توني فهمتها بالطبع.

ثم سمعت صوتاً يقول بالانكليزية هذه المرة وفي نبرة قوية آمرة:

«جنى... افتح الباب».

ولم ينتظر المتحدث، وانفتح الباب بقوة محدثاً صوتاً مفزعاً بعدما دفعه بقطعة من الخشب وتم انتزاع الخنجر من الرجل العجوز. الا أن أحداً من الوافدين الجدد لم يلحظ وجود توني التي ارتمت على أقرب كرسي لاتستطيع حراكاً.

«الحمد الله وصلنا في الوقت المناسب».

وانفجرت المرأة باكية وهي تحتضن بذراعيها والدها الكهل «الحمد الله أننا حضرنا في الوقت المناسب».

«لن نسمح لك بأن تعرض نفسك لمشاكل أخرى».

واهتز رأس توني في عصبية... كان كل اهتمام المرأة منصباً على والدها. ولم تكن تهتم إطلاقاً لمخلفه... لضحيته.

وقال الرجل الكهل وهو يتخلص من ذراعي ابنته:

«داروس... كيف جئت الى هنا.. ولماذا تتدخلين؟»

كان صوت الرجل هائجاً ومرتعشاً. وايقنت توني أكثر من أي وقت مضى أنه مختل عقلياً ترى هل يعرف أقرباؤه ذلك. لاشك يعرفون..

«ابلغتني والدتي بما تعتزمه... وحضرت على الفور... ولكن أحداً منا لم يكن يدرك ما يحدث حتى تقابلنا مع لويس في الخارج وعرفنا منه أن السيارة الزرقاء لابد أنها للفتاة التي تنوي قتلها.»

وقال الرجل في حنق:

«لويس...»

«عرف أنك اكتشفت مكان عمل الشقيقة... وكان هناك همس بأنك تنوي الانتقام، لذلك اتصل فوراً بأمي.»

«لويس... صديقي الذي أثق فيه.»

«أنه يهتم بمصلحتك جداً مثلنا. أراد ان يبعدك عن المشاكل.»

كان الصوت واضحاً مقتضباً ولكنه يتسم بالصرامة. كان الشاب يبدو وكأنه يتحدث الى طفل متمرد واستطرد قائلاً:

«وكما تقول والدتي لن نتركك تعرض نفسك للخطر، كانت وفاة عمتي بدون عمد نتيجة لحادثة، ويجب ان تنسى كل شيء عن الانتقام.»

كان الحديث باليونانية، وعرفت توني أنهم يسلمون تماماً بأنها لاتفهم لغتهم.

«لم يكن من حقك أن تبلغني داروس...»

ولم يكن الرجل العجوز ينصت الى حديث حفيده. كان صوته يرتعش في تصميم وهو يضيف.

«لابد أن أقتل الفتاة. اغتال شقيقها شقيقتي. ويجب أن تسيل الدماء.»

ورد داروس في نبرة هادئة متسامحة.

«لم يكن الموت اغتيالاً. نزلت عمتي بالصدفة إلى الطريق. ولم يكن أمام الشاب فرصة لانقاذها.»

وعند سماع هذا رفعت توني رأسها وتفرست في ملامح الشاب القلقة. كان التحفظ والكبرياء الواضحة تشير الى أنه انكليزي، لاشك في هذا. ولكن نحوله الشديد والخطوط القاسية على وجهه التي تعطي انطباعاً بأنه قد من حجر.. كل هذا يشير الى الصلابة والغطرسة والتزمت مما لايتسم به إلا من ينحدر من سلالة

يونانية وتصورت توني ان أباه انكليزي. وظلت جالسة في مقعدها والجميع يتجاهلون وجودها.

وأعاد داروس الخنجر الى غمده. وقال الرجل الكهل:

«لا أهتم بتفاصيل ما تسمونه حادثة. هناك شيء بداخلي يقول يجب أن أقتل هذه الفتاة.»

كانت عيناه أشبه بجمرتين متوهجتين وكان تسلط فكرة القتل عليه يدفعه الى حافة الجنون.

وسأله داروس:

«هل تدرك أنه سيزج بك في السجن.»

وردت أمه:

«كلا يا داروس... لاتقل ذلك... إن هذا هو السبب في وجودنا هنا الآن... لكي نمنع والدي من مواجهة المشاكل مع البوليس.»

وقال أبوها وهو يتجاهل كل ذلك:

«سوف يكون حكماً مخففاً... شهران سجن على الأكثر.»

ورد حفيده بصوت اختفى منه الصبر والرقة:

«لاتكن سخيفاً. الاغتيال أخذاً بالثأر وما تنوي عمله لايمكن التساهل ازاءها. اصبحت أحكام السجن أكثر قسوة، ويمكن أن تموت وأنت في السجن.»

«إنك لاتستطيع أن تخيفني. القتل من أجل الانتقام لايعتبر جريمة.»

ولأول مرة منذ ظهور الآخرين ـ نظر الرجل الكهل إلى توني وقال:

«سوف أقتلها... أقسمت أن أفعل ذلك. وسوف أنفذ ما تعهدت به.»

وشعرت توني برجفة. كان الرجل شيطاناً. وانتقلت نظرتها الى حفيده. لم يكن يشبهه في شيء إلا طول القامة. كان الرجل المسن فلاحاً. عاش في قرية حيث يؤمن الناس بالثأر.

أما داروس الحفيد فكان على العكس شاباً متعلماً مثقفاً ووالدته أيضاً كانت مختلفة جداً هي الأخرى عن والدها. كان واضحا أن الحظ أسعدها فتركت قريتها وتزوجت رجلا انكليزياً.

ونظر داروس إلى توني، وفكرت... قد يكون هو أيضاً بلا رحمة. إن وجهه

لايحمل أي تعبير عن الاهتمام بالتجربة الصعبة التي مرّت بها وكما فعلت أمه كان اهتمامه الأول منصباً على الرجل الكهل ومشكلة إبعاده عن السجن. وتحدثت توني في نهاية الأمر وقالت بنبرة حادة:

«أشكركما جداً لانقاذي من هذا الرجل المجنون.»

ونظر داروس إليها في شيء من الغطرسة، وقال ببرود:

«ربما تريدين مغادرة المكان، إن لك الحرية في ذلك عندما ترغبين.»

وذهلت توني وحدثت نفسها قائلة بدون اعتذار وبدون كلمة عطف واحدة على ما عانت منه. يالها من أسرة عطوفة.

وردت عليه قائلة:

«أشكرك سأكون أكثر من سعيدة عندما أجد نفسي في الخارج، في الهواء الطلق.»

لكنها بعدما نهضت واقفة ـ جلست فجأة على الفور مرة أخرى. كانت ساقاها لا تقويان على حملها. وأبدى داروس ووالدته الدهشة إزاء هذا التصرف. ولكن أحداً منهما لم يستفسر عن السبب الذي جعلها تغيّر رأيها.

وصرخ الرجل الكهل وهو ينظر الى حفيده في غضب:

«إنني أعتزم قتلها، ولن أستريح حتى أقوم بواجبي.»

«أبي... يجب ألا تفعل ذلك... أرجو ان تهدأ وحاول أن تتعقل. أوضح لك داروس يا عزيزي أن موت شقيقتك لا علاقة له بأخذ الثأر.»

«إن أحداً منكما لايستطيع منعي من ذلك. أضعتما وقتكما بالحضور إلى هنا.»

وأمعنت توني النظر في وجهه مرة أخرى. وشعرت بشيء من التقزز رغماً عنها عندما أحست بالتصميم بادياً عليه. وكان داروس قلقاً أيضاً. وفجأة قال:

«آنسة فريمان، اسم شقيقتك فريمان، أذكر ذلك. آنسة فريمان، يجب أن تغادري كريت فوراً.»

وصعقت توني لهذه الأوامر الجافة، وحدقت فيه، واستمرّ داروس في حديثه:

«إنك لاتفهمين اليونانية، وإلا لكنت قدّرت خطورة الموقف. أصيب جدي باضطراب شديد بسبب وفاة شقيقته، ومن الواضح أنه لن يتساهل أبدا إزاء هذه

المسألة، ولذلك من الملحّ جداً أن تتركي هذه الجزيرة في الحال.»

وردت توني وهي في حالة اهتياج شديد، متجاهلة ملاحظته عن عدم فهمها لليونانية:

«أخشى ألا يكون ذلك ممكناً. لقد جددت اخيراً تصريح عملي هنا، ووقعت عقداً جديداً لمدة ستة أشهر مع صاحب العمل.»

«من هو صاحب العمل؟»

وعندما أبلغته قال:

«اتركي كل شيء لي... وسوف أحصل على استغنائه منه في الصباح ويمكنك مغادرة الجزيرة مساء اليوم... لاأعرف إن كانت هناك طائرة أم لا، ولكن هناك كثير من القوارب العابرة الى البر.»

وكاد الحنق أن يخنقها عندما رفعت رأسها ونظرت اليه قائلة بالغطرسة التي بدت على وجهه:

«هل تتوقع مني فعلا أن أترك وظيفتي، وأن أغادر الجزيرة خلال ساعات؟»

ورد عليها وقد نفد صبره:

«لو أنك فهمت ماقاله جدي لما ترددت في ذلك، من أجل سلامتك أنت يا آنسة فريمان ـ يجب أن تغادري كريت.»

وقالت في هدوء:

«من أجل سلامتي يجب أن أتوجه الى الشرطة.»

وساد المكان سكون مطبق عقب هذا التهديد، وهو تهديد لم تكن توني لتعلنه في مثل هذه الظروف بالذات لو أن داروس ووالدته كانا أقل أنانية وأكثر ميلا الى الاعتذار.

وأخيراً قال داروس في حزم:

«نصيحتي لك هي أن تغادري الجزيرة.»

«لايناسبني أبداً أن أترك الجزيرة، أن أتخلى عن وظيفتي وأهرب بسبب تهديدات هذا الرجل.»

«هل ترفضين ذلك تماماً؟»

«بكل تأكيد أرفض... ويجب أن يسجن هذا الرجل.»

ولم تكن توني تقصد ما قالته لأن الرجل كان مسناً جداً ولن يعيش طويلاً. بالاضافة الى ذلك ـ برغم أن الأخذ بالثأر يعتبر في نظر الغرب تصرفاً وحشياً، كما يعتبر القتل عملاً لا مبرر له ـ الا أنه في نظر الآخرين هنا يعتبر طريقة مقبولة للحياة وهو عادة ثابتة منذ فترة طويلة وربما يرجع تاريخها الى تقاليد الزواج الغريبة التي كانت قائمة في القرى النائية المتخلفة... إن هذا الرجل يؤمن بقوة بالأخذ بالثأر، الا أنه من الواضح أن عقله متأثر بوفاة شقيقه. ولذلك فانه يؤمن تماماً أن واجبه يحتم عليه تنفيذ الانتقام...

وتدخلت المرأة وقالت في يأس:

«آنسة فريمان... هل تغادرين الجزيرة إذا دفعنا لك تعويضاً؟»

«كلا!»

قالتها رغم أنها بدأت تقتنع قليلاً بضرورة مغادرتها الجزيرة، إلا أنها لم تستطع مقاومة رغبتها في إثارة قلق هؤلاء الناس لمجرد معاقبتهم على تصرفاتهم الجافة إزاءها. واستطردت تقول:

«سأكون آمنة تماماً هنا عندما أتوجه الى الشرطة.»

والتقت عينا الأم والابن في نظرة سريعة، وكان الرجل الكهل يستند إلى المائدة، شاحب الوجه وأنفاسه متقطعة. ومع ذلك كان قادراً على أن يقول بالانكليزية:

«الشرطة لاتستطيع حراستك طوال الوقت، وسوف أتربص بك دائماً. هذا ما يحدث عادة في القرية عندما يعتزم شخص قتل آخر. إنه يختبيء في منعطف. أو بين الأشجار، وعندما تأتيه الفرصة يوجه ضربته.»

ونظر داروس في ضيق إلى جده وقال:

«دعك من هذا السخف. الأخذ بالثأر عمل غير متحضر.»

«ربما كان ذلك صحيحاً في رأيك يا داروس، ولكنني لست من جيلك إنني أتبع العادة كما أعرفها، وكما تتصل بإحساس الواجب.»

وبرغم أن صوته بدأ يهدأ لكنه كان يعبّر عن تصميمه على تنفيذ مايعتقد بشدة.

وظهرت علامات العبوس على وجه داروس، وبدت والدته متوترة جداً وهي

تقول:

«إنه يعني ما يقول... يا داروس ما الذي تستطيع فعله.؟»

واستدارت الى توني دون أن تنتظر رداً منه وقالت لها:

«آنسة فريمان أرجو أن تحددي الثمن الذي تريدينه وسوف ندفعه... أي ثمن.»

وأحست توني بالمتعة عندما رأت الحفيد ووالدته يعانيان من حالة قلق شديدة ومع ذلك قررت أن تعيد الهدوء الى المرأة فقالت:

«سأعود الى انكلترا... وعليكم ان تدفعوا...»

وسكتت عندما رأت داروس يهز رأسه بشدة وقد بدا بريق العناد الشديد في عينيه وقال مقاطعاً:

«لن تدفع شيئاً... لن نسمح لأنفسنا بأن تستغل بسبب هذه العقيدة الغبية التي يتمسك بها جدي. ولم يكن ينبغي لوالدتي أن تعرض عليك نقوداً.»

ولم تعد توني مستعدة للتنازل عن أي شيء، ومرة أخرى هددت بالذهاب الى الشرطة وقالت في حدة:

«لم يعد أمامنا الا الشرطة... أو النقود...»

وقال لها في احتقار شديد:

«أنت تستغلين الموقف عن عمد.»

وتدخلت الام وقالت باليونانية:

«داروس... لاتجادل الفتاة. أعطها ما تريده.»

«لن أستسلم للابتزاز، جدي ماذا بك؟»

كان الرجل الكهل يضع يده على رأسه وبدا عليه الارهاق نفسه الذي بدا على توني نتيجة الصراع بينهما. وقال الرجل وهو يغادر الغرفة:

«أنا ذاهب لأستريح...»

ثم قالت الوالدة:

«ادفع للفتاة يا داروس، ولننته من هذه المسألة تماماً.»

«لن أسمح لأي امرأة ان تطالبني بشيء. كنت غير حكيمة عندما ذكرت النقود.»

«ولكن جدك ياداروس يعني مايقول.»

وأومأ ابنها برأسه آلياً وبدا عابساً وهو يفكر.

«لا بد أن تكون هناك وسيلة لانقاذه من نفسه»

«ليس أمامك الا أن توافق على أن تدفع للفتاة»

ورد في ضيق قائلاً:

«ذلك ضد مبادئي ولا بد أن تكون هناك طريقة أخرى.»

ثم نظر الى توني وقال بحدة:

«يجب أن ترحلي...»

«ولكنني لست راحلة...»

وتنهد في حنق وهو يقول لوالدته:

«من الواضح أنها لا تريد التعاون بدون أن تدفع لها»

«عليك أن تتجاوز مبادئك»

وضاقت عيناه الداكنتان وقال مستنكرا:

«وهل تتوقعين مني أن أخضع لمطالبها»

كان صوته جاداً وهز رأسه وهو يتكلم، ولكن عندما رمقته توني بنظرة جانبية لاحظت توتر وجهه. كان يحدق في الفضاء ويحبس من أفكاره واستمرت توني تراقبه وتساءلت. ترى ما هي السمات التي ورثها عن جده الكهل المتعطش للدماء؟ إنه لم يرث شهوة القتل، لكن قسوته كانت واضحة. وبعد أن ظل فترة مستغرقاً في التفكير قال أخيراً في صوت مكبوت:

«كم تريدين آنسة فريمان؟»

وتنهدت أمه في ارتياح كأنها أزاحت عن صدرها عبئاً ثقيلاً.

وأوشكت توني أن ترد عليه قائلة إنها لا تريد سوى أجرة سفرها فقط ولكن شيطاناً تقمصها فجأة فرفعت رأسها وأجابت في تحد.

«لا أريد شيئا... انا ذاهبة الى الشرطة»

ونظر داروس في عبوس اليها.

«ولكنك كنت تنوين طلب المال.»

«غيرت رأيي. فما الذي يدعوني الى التخلي عن وظيفتي؟»

وضاقت عيناه على نحو خطير وتساءلت ترى ما الذي يريد أن يفعله. وقال:

«وهل هذا هو رأيك الأخير؟ هل أنت مصممة على التوجه الى الشرطة؟»

وترددت توني بعض الشيء، وسألت نفسها: ما الذي جعلها تتمادى الى هذا الحد؟ وكيف تستطيع الآن أن تتراجع؟

وعندما لمحت ومضة الأمل على وجهه بسبب تأخرها في الرد قالت بسرعة:

«انني مصممة تماماً»

قالت ذلك وهي تفكر: هؤلاء السفلة. ماذا يتصورونها؟ ان رأي رجل مثل داروس لايمكن أن يؤثر عليها إطلاقاً.

وانفجرت الام باكية وهي تقول:

«ياعزيزي إنها غلطتك، أنت عقدت الأمور كانت مستعدة لمناقشة الدفع. ليس هناك الآن شيء نستطيع فعله.»

وصمتت فجأة عندما دخل والدها الغرفة. كانت عيناه الحدقتان في تهديد. وقال:

«فكرت الآن في شيء. ذلك القاتل له عم يعيش في جزيرة كريت. اكتشفت ذلك وأنا أقوم بتحرياتي عنها؛ وهكذا فانها إذا توجهت إلى انكلترا سوف أقتل عمها...»

واستدار الى داروس وهو يضحك واستطرد قائلاً:

«نعم سوف أقتله. أو أقتل أحد أبنائه. لديه ابنة جميلة جداً. هذا هو ما سمعته»

وانحنى وهو ينظر ساخراً إلى توني قائلاً:

«هذا صحيح أليس كذلك. ابنته الصغرى جميلة جداً.»

وقالت توني وقد بدأ قلبها يخفق بشدة:

«لا تستطيع أن تزج بعمي في مثل هذه المسألة»

لكن الرجل المسن اختفى من الغرفة. وعندما صمتت توني كان الصوت الوحيد الظاهر في الغرفة هو صوت بكاء والدة داروس.

واستغرق كل من داروس وتوني في التفكير وتساءلت توني ما الذي يمكن ان تفعله الآن؟

كانت نيتها في بادىء الأمر أن تتعاون معهم، وأن تعود الى بلدها. ولكن هذا التطور الجديد عقد الموقف بصورة خطيرة. فلو بقيت هنا تتعرض حياتها للخطر. واذا رحلت من الممكن أن يتعرض عمها أو أحد أفراد أسرته للموت.

وكانت المرأة هي التي استأنفت الحديث أولاً بعد أن رفعت رأسها وتطلعت الى

داروس وتوني... ثم وجهت كلامها الى ابنها.
«هل تعتقد أنها يمكن أن تتزوجك؟»
«ماذا؟»

لم تكن كلمة الاستغراب هذه صادرة عن توني كما هو متوقع. بل انطلقت من داروس الذي بدا كأنه فقد عقله وحدق في وجه والدته وقد ارتسمت عليه علامات الجنون كجده. وبهتت توني لكنها استطاعت أن تسيطر على دهشتها في حين أن داروس كشف عن مشاعره.

واستطردت الأم قائلة بسرعة:
«كما تعرف... انه من المحظور الثأر من الاقرباء. وإذا تزوجتها فسوف ترتبط بصلات القرابة، وبالتالي لايستطيع جدك أن يمس أحداً. لن يستطيع ذلك طبقاً لقوانين القرية التي ينصاع اليها تماماً. أنا أعرف أنك ستستنكر ذلك يا داروس ولكن ألا تحتمل الزواج منها؟»

وظلّ داروس على ذهوله لايستطيع إلا أن يحملق في وجه أمه. كان واضحاً أنه يتصوّر أنها فقدت عقلها.

أما توني فكان يبدو عليها أنها فهمت شيئاً ولكنها استطاعت مرة أخرى أن تتماسك بدون أن تبدو عليها علامات الدهشة. ولكنها كانت تحس بالحنق من جرأة هذه المرأة.

توني لم تقابل أبداً أسرة على هذا النحو منذ وصلت الى اليونان. في بداية الأمر كاد أحد أفراد الأسرة أن يقتلها. وبعد وصول المرأة وابنها المتغطرس لم يحاول ايٌ منهما أن يسألها عن حالتها أو يقول شيئاً يهدىء أعصابها. ليس هذا فقط بل امروها بمغادرة الجزيرة واتهمت بالابتزاز ولم يبق الآن الا أن تتزوج هذا الشاب الذي لايطاق - إذا ما وافق على اقتراح أمه - في سبيل إنقاذ الرجل المسن المجنون من نفسه. لم يحدث في حياتها أن أحست برغبة عارمة في الانتقام قبل الآن.

ورد داروس في ذهول:
«أتزوجها؟ هل جننت؟»

وأمام هذا الاحتقار والاشمئزاز وأمام بلادته لأنه يفترض أنها تجهل ما يدور

حولها نفد صبر توني وكادت تنفجر ساخطة... ألا أن الأم كانت أسرع منها في الرد على داروس:
«إنه الحل الوحيد... وربما بالطبع لاتقبل الزواج منك لمجرد إنقاذ عمها، ولكني أعتقد أنها لو عرفتْ ما لديك من ثروة!»
«هذه الفكرة غير واردة إطلاقاً. لاشك أنك فقدت عقلك وأنت تقترحين ذلك.»

وبحركة صغيرة تدل على اليأس ابتعدت المرأة عن ابنها ورأت توني الذعر والخوف في عينيها. كانت تحب أباها بالتأكيد ولاشك أن دخوله السجن سيحطم قلبها، وعادت المرأة تلح مرة أخرى وتقول:
«إنك لو تزوجتها سيكون الأمر مؤقتاً. فمن الواضح أنك لاتريدها بهذه الطريقة، وهكذا فإنه فور حدوث أي شيء لجدك تقوم بطردها وإلغاء الزواج. لم أكن لأطلب منك أن تتزوجها لو كان هذا الزواج سيؤثر عليك طوال حياتك، ولكن الأمر لن يطول.»

ولم يعقب داروس بكلمة على ما قالته الأم التي استطردت:
«هناك أيضاً مشكلة العار... هل فكرت في ذلك. إن الأخذ بالثأر يعتبر إجراء غير مشروع في نظر المثقفين اليونانيين، وأنت رجل مرموق بين رفاقك. ألا تفكر في اقتراحي من أجل مصلحتنا جميعاً. هناك أيضاً شقيقاتك... تذكر هذا.»

وكادت توني تنفجر غيظاً عندما استمعت الى هذا الحديث. انها تقول له فكّر في الاقتراح... كأن هذا الابن المتغطرس ليس عليه الا ان يرفع أصبعه فتهرع توني اليه أية تضحية!

ورد الابن قائلاً:
«هذه المسألة ليست موضع تفكير بتاتاً.»
«جوليا في الجامعة و مارغريتا... لزوجها مكانته... انه رئيس القرية وينبغي عليك ألا تجعلهم يعانون من هذه الفضيحة.»

وبدت عظام أصابع توني تتقلص وشعرت أنها ستنفجر بالتأكيد إذا لم تغادر هذا البيت فوراً. ومع ذلك لم تحاول الانصراف. كان فضولها كبيرا وهي ترقب كيف يعالجان المشكلة... وقال داروس:
«هذا مستحيل. انك تعرفين رأيي في المرأة الانكليزية.»

واشتعل غضب توني وهي تسمع داروس يقول:
«الفتيات الانكليزيات لا يتمتعن بالجاذبية ومغرورات. إنهن كالمرتزقة الباحثات عن الذهب. يوقعن ضحاياهن في الشباك تحت ستار عجزهن وضعفهن. ولكنهن فيما بعد يفرضن قوة تحررهن على أزواجهن. وأخيرا يتحولن إلى شخصيات ضعيفة مجردة حتى من احترام النفس... كلا أشكرك. عندما يحين زواجي سأختار يونانية تعرف حدودها كامرأة».

«أتفهم كراهيتك يا داروس، ولكن كما قلت لك، هذا هو الحل الوحيد. انا أمقت تلك الفكرة تماما، ولكن التضحية من جانبك يمكن أن تنقذ جدك من السجن، ولأنه إذا دخل السجن ربما يموت هناك. انا متأكدة أن العقوبة لن تكون مخففة رغم كبر سنه».

وشعرت توني أنه يواجه صراعاً شديداً. كانت النظرات التي رمقها بها لا تقلّ عداء عن النظرات التي كانت تلقتها من جده.

كان داروس يحدث صريراً بأسنانه وهو يفكّر فيما قالته والدته. ان هذه الفتاة غارقة في صفات المرأة الانكليزية وربما لاتفكر في الزواج حتى من أجل الأموال. وصرح برأيه هذا لوالدته فتنهدت المرأة وفعلت توني الشيء نفسه ولكن في صمت. كان وجهها يبدو عليه الغضب وعدم التصديق.

وأخذ داروس يقلب الأمر بينه وبين نفسه. إنه مجرد ترتيب مؤقت. جدي يمكنه أن يموت خلال أسابيع، فهو يزيد عن الثمانين.

وانبرت الأم فقالت في حماس بدون أن تنتظر الرد:

«اسألها. انا متأكدة أنها سوف تقبل. برغم أنها أظهرت عنادها إن ذكر الأموال سوف يقنعها... كنت تقول دائماً إن النساء الانكليزيات تفعلن أي شيء مقابل المال. ولذلك لا أعرف لماذا أنت متشكك في موافقتها. اذكر لها أنك من أصحاب السفن وسوف تستسلم للزواج منك... وإذا ترددت بعض الشيء اذكر لها المنزل الذي تملكه أو المقرّ الصيفي في جزيرة رودوس. عندئذ لن تستطيع المقاومة. وسوف يكون عليك تعويضها فيما بعد عندما تقرر إنهاء الزواج، ربما تطالب بمبلغ كبير ولكن الأمر يستحق التضحية».

لم تكن توني قد شعرت من قبل بمثل هذا الاحساس بالغيظ ولكنها

استسلمت لشعور داخلي بأن من مصلحتها أن تبقى صامتة. وأخيراً رد داروس على والدته:

«ربما تكونين على صواب. إن معرفتها بالثروة قد تثير بريقاً في عينيها».

وعندما تطلعت عيناه الداكنتان الى توني باحتقار تساءلت ترى هل يتكلم عن تجربة سابقة؟ هل حدث يوماً أن فتاة انكليزية خذلته؟ يبدو أن هذا ما حدث ومع ذلك حتى إذا كان يعاني الاحباط أو الاهانة. وهذا أمر بعيد الاحتمال. شعرت توني أنه لاشيء يمكن أن يؤثر على رجل بلا قلب ولا مشاعر... فإن هذا لايبرر حكمه بأن كل الفتيات الانكليزيات سواء. وعادت الأم تغريه قائلة:

«الأمر لن يطول وسوف توضح لها الموقف حتى لاتتوقع منك أن تخصص لها وقتك أو اهتمامك وما عليك، الا أن تتناول معها وجبات العشاء فقط حتى يبدو الأمر طبيعياً في وجود الخدم. وفيما عدا ذلك باستطاعتك أن تنس حتى مجرد وجودها...»

وصمتت المرأة برهة ثم قالت:

«هل ستسألها الآن؟» ورفع حاجبيه السوداوين، وقال:

«كلا ليس في هذه اللحظة بالذات. أعطني بعض الوقت لأتعود على الفكرة»

٢ ـ باب بلا مفتاح

وهكذا مضت ساعات عدة قبل أن يطلب داروس لاتيمر الزواج منها في فندق هيرمز حيث كانت تقيم. ساعات أحست تونى خلالها أن جسمها يحترق من الغيظ والغضب. لكنها بعدما استعادت هدوءها بدأت تقدر الأمر في تعقل.

كان داروس لاتيمر قد سألها عن محل إقامتها قبل أن تغادر منزل جده، وبادرت الى إعطائه العنوان مستلهمة إحساسها الداخلي بألا ترفض... لكن عقلها كان مشوشاً في ذلك الوقت. كانت تحاول يائسة أن تحل المشكلة بينما كانت فكرة الزواج تلوح واعدة!

وهي مسترخية في مياه الحمام الدافئة شرعت تستعرض الموقف بصورة موضوعية، ملقية الأضواء على كل الأطراف محاولة ربطها... كان هناك من ناحية داروس صاحب السفن الثري بممتلكاته في اليونان، ومقر إقامته الصيفي في جزيرة رودوس الجميلة وقد فهمت تونى من كلامه أنه يقيم هناك من ناحية أخرى جده الكهل العنيف الذي لايمكن الاستخفاف بأي حال بتهديداته ان يقتل أحد أقارب اخيها. كان هذا الرجل السائل الكهل يقصد فعلاً مايعنيه، ثم هناك والداها اللذان ظلا يعملان طوال حياتهما الزوجية لتدعيم تجارتهما، وهما بحاجة الى خمسة آلاف جنيه لانقاذها، وكان والدها قد كتب لها وتساءل: من أين يمكن الحصول على هذا المبلغ؟ وفكرت... من أين حقاً؟ كذلك كانت هناك شقيقتها بام التي تستطيع بالتأكيد ان تفيد من مساعدة مالية بسيطة.

وأخيراً هناك تونى نفسها، التى أصبحت تراودها الآن فكرة الانتقام من هذا الأجنبي المتغطرس وإرغامه على دفع ثمن كل هذه الاهانات التي سمعتها ـ ولم يعفه من اللوم أنه تصوّر أنها لم تكن تفهم الحديث الذي دار معظمه باليونانية.

وفي النهاية قررت تونى... نعم... إن الزواج من داروس ضروري ومرغوب فيه، فلن يحلّ فقط مشكلات سلامة الأسرة ومواردها المالية، ولكنه سيوفر أيضاً فرصة عظيمة للانتقام.

خرجت تونى من غرفة الاستحمام وهي تلف جسمها في منشفة وتوجهت إلى الغرفة الأخرى حيث نظرت الى نفسها في المرآة.

لاشك ان داروس كوّن لنفسه فكرة عن الفتاة الانكليزية العادية. فلماذا تخيب أمله؟ إن هذه الفكرة سوف تكلفه مبدئيا خمسة آلاف جنيه، ولذلك من العدل أن يأخذ شيئاً مقابل ماسيدفعه من أموال!

وبعدما أحست تونى بشيء من العجز عن مواجهة الموقف هكذا، فكّرت في أن تتدبر الأمر. ربما تستطيع أن تتصرف بشكل ما لتعطيه ما يتوقعه. وبعد ذلك تبدأ تدريجيا في تنفيذ خطتها كلها.

أعلن داروس أن الفتيات الانكليزيات مرتزقات. حسناً... سوف يكتشف حقيقة ذلك. وقال إنهن غير جذابات أيضاً، ووضعت يدها على المنشفة التي تعلو رأسها محاولة تثبيتها. وأعادت الى الوراء خصلة من شعرها الذهبي الجميل كانت تغطي جبهتها العريضة... لابد أن تظل المرأة الانكليزية كما يتصورها، غير جذابة، وبالاضافة الى ذلك إنه يرى أنها مغرورة؛ الأمر لن يكون صعباً؛ أشار أيضا الى قوة التحرر لدى المرأة الانكليزية؛ ولسوف تجعله يتذوّق هذا بنفسه عندما يتزوجان!

وفجأة لمعت عيناها الخضراوان بارتياح كبير. عندما يحين الوقت لفسخ هذه الزيجة وإنهاء كل رابطة بينهما سوف يتمنى داروس لاتيمر لو أمكنه أن يسحب كل إهاناته التي تجرأ على توجيهها اليها في حضورها وتحت سمعها.

وظهر داروس وسط غرفتها مرتدياً بذلة من الوهج المتاز. وتظاهرت تونى بالدهشة من اقتراحه الزواج منها الذي عرضه عليها في فتور. ثم ألقت بنفسها على أقرب مقعد وقالت بابتسامة على شفتيها:

«أتزوجك انت ياسيد لاتيمر! إنني لا أفهم، لابد أنك غير جاد فيما تقول.» وهزت رأسها متظاهرة بالحيرة والدهشة مرة أخرى وبدت ابتسامة ضحولة على شفتيها.

ونظر إليها داروس في سخط محاولاً ضبط نفسه وهو يقول:

«لم أكن لأحضر الى هنا لو كنت غير جاد يا آنسة فريمان. جدي متأثر جداً بموت شقيقته. يضاف إلى ذلك أنه يعيش في قرية منعزلة حيث مازالت عادة الأخذ بالثأر قوية. وهو يعتقد حقيقة أن واجبه هو تنفيذ الانتقام. إلا أنه من المحظور في قريته أن ينفذ الانتقام ضد أقاربه. ولذلك فإن زواجنا سيكون فعالاً في ضمان سلامتك وسلامة أسرتك.»

وجلس داروس وعلامات القلق تبدو عليه. فقد كانت لديه الرغبة في أن تنتهي هذه الصفقة بسرعة. ولكن لم يبد عليه الارتياح...

وردت عليه توني:

«كما أن زواجنا سيكون ضماناً لعدم دخول جدك السجن». ونظرت إليه ومنحته ابتسامة حلوة. ونظر اليها داروس في غضب، وشعرت برغبة كبيرة في الضحك. بلا شك أن الموقف بدا مضحكا... في نظر توني على الأقل.

«بالضبط.»

قالها في تردد، ثم أخذ يجول ببصره في غرفتها المتواضعة. وكانت توني تجلس في كرسيها تتطلع إلى وجهها في المرآة، كأنها معجبة بجمالها.

ولاحظ داروس فجأة تصرفاتها. وشعر بشيء من الاحتقار لها. وفكر أنها مغرورة فعلا. ومرت فترة من الصمت. وقالت لنفسها:

زواج! لو عرف الرجل ماهو مقدم عليه لقام بركلي!

«حسناً... هل قررت شيئاً» واتسعت العينان الخضراوان. ثم قالت:

«في خمس دقائق فقط! إنه قرار هام جداً بالنسبة الي... سيد لاتيمر. إنني لاأعرف شيئاً عنك!»

وسألها بلهجة تدل على القلق والغضب:

«ما الذي تريدين معرفته عني؟»

«حسناً... ما هي حالتك... ياسيد لاتيمر؟»

«حالتي»

«أقصد هل أنت ثري؟ أقسمت دائماً ألا أتزوج رجلا فقيراً. إن أي فتاة يتعين عليها أن تفكر في مواردها المالية... أليس كذلك؟»

كانت نظراته التي تتسم بالازدراء ترمقها من رأسها حتى قدميها وكانت توني من ناحيتها لاتستطيع أن تكتم رغبتها في الضحك.

«انا صاحب سفن.»

وبدا وميض الفرح في العينين الخضراوين كما توقع وأردفت توني:

«إذن فلا بد أنك ثري فعلاً هل لديك منزل كبير؟»

«نعم في اليونان.»

ونظرت اليه باستغراق وتأمل... ودمدمت قائلة:

«بعض الرجال الأثرياء يمتلكون عدة منازل.»

بدت خيبة الأمل في نبرة صوتها. وقال لتوني في برود:

«لدي أيضا مقر إقامة صيفي في جزيرة رودوس. ولكني لاأمتلك أية منازل أخرى. إنني آسف لذلك (قالها في تهكم) ولكنني قد افكر في شراء منزل آخر فيما بعد.»

كان واضحا أنه قال ذلك حتى يغريها بالقبول. وقالت توني أخيراً وقد قررت إظهار العجز والضعف الذي كان قد أشار اليها في كلامه عن الفتيات الانكليزيات:

«أشعر أنه من واجبي أن أستشير والدي... فربما لاتعجبه فكرة الزواج من أجنبي وبدون رضاه.»

ورفع داروس رأسه قائلاً:

«توقعت أن تكوني قادرة على اتخاذ قراراتك بنفسك. كم عمرك الآن؟»

وعضت شفتيها واستدركت قائلة:

«٢٣ سنة... وأعتقد أنني أستطيع أن أتخذ قراراتي بنفسي لكنني اعتدت أن أتشاور مع والدي في المسائل ذات الأهمية.»

ونظر داروس اليها في تشكك... وتمتم في نبرات جافة:

«وهكذا إذا أردت الزواج واعترض والدك على اختيارك... سترضخين لحكمه...»

ومرة أخرى هز رأسه وشعرت توني بالغضب. لكنها استطاعت ان تقول

بهدوء:

«كنت أفكر في تسوية أكثر من أي شيء آخر...»

«تسوية؟»

وقالت توني وكأن هذا أمر مسلم به:

«انك بالتأكيد تنوي عرض تسوية؟»

وزم داروس فمه وبدت عليه ملامح اليوناني الجاف بتلك الخطوط الغائرة والنظرات الجامدة. وكانت تحس أن مشاعره مشتعلة بالحنق والغضب. وفي الوقت نفسه تأمل برغم ما شعرت به من سعادة في أعماقها ألا تكون قد بالغت في تقدير إمكانية التعامل معه وقال:

«عندما ينتهي الزواج ستكونين قد حصلت على تعويض كاف. وليس قبل ذلك.»

وشعرت توني بالصدمة وهي تقول:

«ولكن أبي سيصرّ على التسوية الآن بسبب هذه الظروف غير العادية. ذلك سيكون ضماناً لي...» وظلّ صامتاً ثم قال:

«ضمان من ماذا؟»

«من المستقبل. فقد لا أجد أبداً زوجاً آخر بعد أن يتمّ الطلاق.»

«ولكن لن أطلقك.»

«لافرق في ذلك. الرجال لا يرغبون في امرأة تكون من قبل...»

ورفع حاجبيه وقال بلهجة جافة:

«أعتقد أنه في بلدك لا يهمّ أبداً إذا كانت المرأة قد تزوجت من قبل نصف دستة من الرجال.»

واحمرّ وجه توني غضباً وهي ترمقه بعينيها اللامعتين وتقول:

«لسنا نساء بلا أخلاق ياسيد لاتيمر»

«إنها مسألة رأي. في أي حال إننا نبتعد عن جوهر الموضوع.»

«مسألة دفع مبلغ من المال تأتي عندما يفسخ الزواج. وسوف تحصلين على مبلغ شهري كبير وسيكون هذا كافياً الى أن تؤدي وفاة جدي الى انفصالنا.»

قال ذلك بلهجة صارمة لاتدل على أي مرونة. وأجابت برقة:

«اذاً فأنت لاتريد أن تقدم هذه التسوية الآن.»

«لا أرغب في ذلك الآن.»

وعادت بأفكارها إلى والدها فأثناء تلك الساعات التي قضتها بانتظار وصول داروس شعرت بالسعادة لفكرة إرسال النقود اليها. وكانت تعرف أنها ستصاب بخيبة أمل إذا لم تستطع تحقيق خطتها. وقالت:

«في تلك الحالة لايمكن أن يتمّ الزواج.»

ووجهت نظرها إلى أظافرها ذات الطلاء اللامع ثم نظرت في المرآة. وبدا على الرجل أنه يحتقرها لسلوكها العابث. واستطردت تقول في صوت حاسم:

«وإذا لم تتزوج فالموقف سيعود إلى ماكان عليه عندما غادرت بيت جدك.»

ثم تنهدت في عمق وأضافت:

«سوف أضطر إلى طلب حماية الشرطة ولكني متأكدة أنه سوف يعتدي على عمي.»

ونظر داروس اليها في حنق قائلاً:

«هل توجهين إنذاراً اليّ؟»

وقالت في حدة:

«لن يكون هناك زواج بدون تسوية. انا انكليزية كما تعرف ونحن نحب أن نحصل على الأمان... لكنك ربما لاتعرف الكثير عن الفتيات الانكليزيات؟»

وحدّق داروس فيها بجفاء شديد وأشاحت توني برأسها خائفة أن تكون قد قالت بعض الشيء في حديثها اليه. الأمر سيكون خطيراً لأن داروس لايمكن أن يكون غبياً . ويجب ألا يكتشف أنها فهمت كل كلمة قالها عنها وعن أهلها. على الأقل ليس في الوقت الحاضر.

ومضت فترة طويلة من الصمت قبل أن يسألها بخشونة:

«وكم تبلغ هذه التسوية؟»

«حسناً... أعتقد أنها خمسة آلاف...»

وقاطعها بشدة قائلاً:

«ماذا تقولين؟»

«إنك تستطيع دفعها فعلا ياسيد لاتيمر فهي لاتساوي شيئاً بالنسبة الى رجل مثلك. المعروف أن أصحاب السفن اليونانيين هم من بين أغنى أثرياء العالم.»

«هل تتوقعين مني أن أتخلى عن مبلغ كهذا لشخص غريب؟»

«وأنت أيضاً غريب بالنسبة إلي، ولذلك كيف يمكن أن أثق فيك؟يجب أن أحصل على التسوية فوراً.»

وشعرت توني بالانتصار على هذا اليوناني المغرور، ولكن هذا اليوناني المتغطرس لم يرشيئاً بعد، فلينتظر حتى تصبح زوجته.

ونهض داروس واقفاً وهو ينظر اليها في احتقار بارد بدا واضحاً في عينيه:
«سوف تحصلين على المبلغ بمجرد أن تتزوج، وسوف أعطي للمحامي التعليمات الضرورية.»

«لكنني أفضل أخذ النقود الآن.»

وقاطعها قائلاً:

«سوف تحصلين عليها عندما نتزوج.»

كانت عباراته هذه المرة قاطعة لاتسمح بأي جدال ولم تجد فائدة من الضغط عليه أكثر. إن الآلاف الخمسة في رأيها ستكون بداية.

وسافر الاثنان الى رودوس بحراً. ووصلا ظهراً. كانت سيارة داروس تقف في ميناء مندراكي. وبدأت من هناك الرحلة البرية. تركا مدينة رودوس الرائعة، واتجها جنوباً على طول الساحل الذي تحفه جبال شاهقة من ناحية، والبحر من الناحية الأخرى. وكان الطريق ممتداً عبر قرى بيضاء جميلة. وبعد أن قاد السيارة فترة من الوقت في صمت تام فاجأها داروس بحديث يخلو تماماً من أي توتر وأخذ يصف لها الأماكن والقرى المختلفة ومنتجعاتها المشهورة.

هذه قرية أفنتو الشهيرة بثمار المشمش وهذه قرية اركيا نغيلوس حيث ينمو أفضل برتقال على الجزيرة. وبعد ذلك انخفض الطريق عبر ممر جبلي إلى مالونا، واخترق سفوحاً مغطاة بالأشجار قبل أن يتجه جنوباً مرة أخرى نحو ميساريا. هناك كانت كنيسة بيضاء كبيرة. واضطر داروس أن يتوقف بينما أخذ راع يعبر الميدان مع قطيعه ببطء وبدون اهتمام. كانت الأشجار الظليلة تجعل المنطقة كلها باردة وهي أشجار لوز وزيتون متناثرة هنا وهناك.

وفجأة استرعى انتباه توني رجل يجلس إلى طاولة خارج منزله ويهز ساقيه بطريقة غير لائقة، وتتدلى سيكارته من فمه. صفق الرجل بيديه في طريقة

متغطرسة فجاءته امرأة بسرعة. تحدث اليها وعادت مرة أخرى تحمل صينية. والتفتت توني إلى داروس قائلة:

«هل هذه زوجته؟»

«نعم.»

كان داروس يبتسم وهو يرى تقطيبة ثقيلة تكسو جبهتها.

«كيف يعاملها بهذه الطريقة الغريبة؟»

«اعتادت على ذلك...»

ووجه اهتمامه إلى قطيع الماشية

«إنه يصفق لها بيده كأنه ينادي عبداً.»

«ربما ينظر إليها فعلاً على أنها عبدة.»

ولاحظ داروس أن وجه توني احتقن بحمرة الغضب، فقال في لمسة مودة أثارت دهشتها:

«لا تقلقي كثيراً...لن أفعل هذا معك..»

وردت بسرعة وقد لمعت عيناها.

«لن يكون لذلك تأثير كبير لو فعلت ذلك.»

وتوتر الموقف بينهما، وظل الاثنان صامتين طوال عشرين دقيقة. الى أن وصلا الى ليندروس وعندئذ حدقت توني في روعة المكان.

كان أمامها مشهد بالغ الروعة من المناظر الطبيعية اليونانية. فعلى مرمى البصر إلى أسفل كانت هناك صفوف متراصة جميلة من المنازل البيضاء على حافة التلال، يتاخمها شاطئ عسلي، تعانقه أمواج بحر ايجه المغطاة بالزبد. والى اليمين أكروبوليس ليندروس حيث معابد اليونان القديمة، وبعدها تبدو تحصينات وقلاع البيزنطيين فرسان القديس يوحنا. الى يسار الخليج التي تحفه أشجار النخيل الباسقة من كل جانب، وعلى نتوء صخري داخل البحر، مقبرة حاكم ليندروس القديم الاسطوانية الشكل التي يمتد تاريخها ثمانية آلاف عام. إنه شيء جميل حقاً. كانت الروائح العطرة تفوح من الزهور المنتشرة في جنبات الطريق. وهتفت توني معبرة عن إعجابها بجمال المشهد.

التفت إليها داروس وقد بدت عليه الدهشة. وفكرت توني: ترى هل كان

يعتقد أن الفتيات الانكليزيات بسبب غرورهن وحبهن للمال لا يقدرن الجمال؟ يجب أن يتعلم الكثير هذا اليوناني المتغطرس العنيد.

واتجه داروس بسيارته ناحية الشاطئ، ولمحت توني من بعيد منزلاً أبيض رجحت أن يكون منزله. وقال لها:

«إنه على الشاطئ، مباشرة، وهو مبني داخل الصخور، وسوف ترينه عندما نمر بالمنعطف التالي، ها هو ذا، يمكنك رؤيته أوضح الآن.

كان المنزل كما قال مبنياً داخل الصخور من الأحجار الرملية، وكانت له أقواس واسعة وشرفات في كل غرفة تقريباً وعندما اقتربا من المبنى شاهدت توني التأثير الغربي ظاهراً في طريقة تقليم الأشجار، والمروج الخضراء الواسعة، وحمام السباحة الذي تحيطه مقاعد الحديقة والخمائل . كان المشهد خلاباً حقاً. المنزل مواجهاً للشرق بينما الحدائق لناحية الجنوب، والاكروبوليس تبدو من جهة وقرية ليندروس من الجهة الأخرى، ثم يظهر على مبعدة الخليج الصغير المحاط باليابسة. ويقال إن القديس بولس نزل في طريقه الى روما، وأمضى هناك فترة طويلة استطاع خلالها أن يحول اليونانيين الوثنيين إلى الدين الجديد.وفي الناحية الأخرى كان جانب التل المغطى بالأشجار الكثيفة وأمام البيت يمتد البحر الفيروزي الشاسع.

وانفتحت البوابات الحديدية الضخمة وعبرها داروس في سيارته...الأشجار من كل جانب حتى وصل الى مدخل البيت...وجاءت ماريا تلقي نظرة خاطفة على سيدتها الجديدة.

ويبدو أن داروس قد أبلغ خادمته بزواجه. ذلك أن ماريا انحنت قليلاً أمامها وقالت باللغة اليونانية:

«مرحبا بك يا سيدة لاثيرو».

ونظرت توني الى زوجها مستفسرة فاكتفى بالقول:

«ماريا تقول مرحباً بك».

وردت توني في مودة:

«أشكرك يا ماريا».

وابتهجت ماريا عندما سمعت هذه العبارة.

«أتتحدثين اليونانية؟»

ونظرت توني مرة أخرى الى زوجها التي وجه حديثه الى ماريا قائلاً:

«لا يا ماريا السيدة لاثير لا تتحدث لغتنا».

ثم ظهر زوج ماريا، بعدما قدم التحية، أخرج الحقائب من السيارة. واقتادت الخادمة توني إلى غرفتها التي تطل على البحر، وكانت النافذة الجانبية تطل على القرية وقد بدت الاكروبوليس في أعلاها. وانفتح باب يفصل بين غرفتين، وألقت توني نظرة سريعة على غرفة نوم داروس، ولاحظت أنه لا يوجد مفتاح في قفل باب غرفتها، لكنها لم تستطع أن تسأل ماريا عن مكان المفتاح، ثم سمعت خطوات داروس تقترب منها فقالت:

«لا يوجد مفتاح للغرفة».

واحمر وجهها قليلاً عندما رأته يبتسم ساخراً وهو يلقي نظرة آلية على القفل.

«أخشى ألا يكون هناك مفتاح، إلاّ أن ذلك لا يهم كثيراً.إن احداً منا لن يحاول مضايقة الآخر».

وزاد وجهها خجلا وهي تقول:

«ولكنني أفضل أن يكون هناك مفتاح لو سمحت».

«قلت لك إنه لا يوجد مفتاح، أضاعه ضيف كان ينزل هنا منذ فترة طويلة».

«من الممكن صنع مفتاح آخر بكل تأكيد».

ونظر اليها مقطبا جبينه:

«هل الأمر مهم الى هذا الحد، أؤكد لك أنه ليس هناك ما تخشينه مني».

وقال ملاطفاً:

«ضعي كرسياً وراء الباب، هذا ما تفعله النساء عادة أليس كذلك؟»

وردت قائلة:

«يبدو أنك تعرف ذلك، وربما منعت مرة دخول الغرفة بهذه الطريقة».

ورفع حاجبيه وقال لها:

«يا عزيزتي، لو أردت أن أدخل غرفة فلن يمنعني شيء صغير كالكرسي».

«وفي هذه الحالة لا بد أن يكون معي مفتاح».

قالت هذا بسرعة وبعد قليل تمنت لو أنها ظلت صامتة. ورمقها بنظرة تعبر عن

احتقار وقال:

«غرفتك هي آخر غرفة أرغب في الدخول اليها»

وأغلق الباب وراءه، تاركاً إياها واقفة في غرفتها وقد احمر وجهها غيظاً. أما هو فسرت في جسمه رعشة الحنق. وهذه إهانة أخرى تضاف إلى الاهانات السابقة لها إنه سوف يدفع الثمن .. إنه لا يعرف كم ستكلفه هذه الغطرسة!

٣ ـ دعوا الاطفال يأتون...

كانت توني وجوليا مسترخيتين على الشاطئ تحت الشمس. وكان يبدو من بعيد الزورق الأبيض الذي يقل مارغريتا وزوجها قادمين من جزيرة كوس الصغيرة. وعندما رأت جوليا الزورق قالت في حدة:

«ألم يكن داروس أنانياً لأنه تعمد عدم اصطحابنا معه؟»

«ان الرجال اليونانيين لا يصطحبون نساءهم معهم عادة».

«ولكن داروس نصف انكليزي، لقد ترملت والدتي عندما كان داروس يبلغ من العمر عامين فقط وتزوجت مرة اخرى بعد عام».

«اذن فقد تربى داروس كيوناني».

ومضت توني تقول بدون أن تنتظر رداً..

«ولذلك فإنه يميل أكثر الى اليونانيين عنه إلى الانكليز وفي الحقيقة لا أنظر اليه كانكليزي أبداً. وهذا هو أيضاً السبب في أنه لم يصطحبنا معه».

لكن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. أن داروس لم يكن ليطلب من توني أن ترافقه الى كوس. ولذلك فإنه لم يستطع أن يطلب من شقيقته ذلك.

وبدت جوليا قلقة وأصبحت توني متوترة كأنها تنتظر شيئاً.

كانت جوليا تقيم مع شقيقها منذ أسبوع تقريباً بعدما جاءت من أثينا في عطلتها السنوية التي بدأت في أول شهر يونيو(حزيران)، منذ اليوم الثالث لوصولها بدأت ترمق توني بنظرات غريبة بين حين وآخر، وكانت في بعض الأحيان تهمّ بالافضاء إليها بأسرارها حتى تكتسب ثقتها.لكنها كانت تغير رأيها

كل مرة، وأخيراً تمالكت جوليا نفسها وقالت لتوني في كلمات سريعة:
«توني، هل تعتقدين أنه من الخطأ أن يكون لك صديق قبل الزواج؟»
ولمحت توني خاتم الخطوبة في أصبع جوليا. وضعت هذا الخاتم في أصبعها منذ أقل من شهر.
«لا أعرف كيف أجيبك. في بلدي لا يهم هذا الأمر أبداً. ولكن هنا، لا يصح للفتاة اليونانية أن تتخذ صديقاً لها قبل الزواج. أليس كذلك؟»
واحمر وجه جوليا الجميل خجلاً وهي تقول:
«كان لدي صديق في الجامعة، واسمه كوستاس».
والتقطت جوليا حصاة عن الأرض، وقلبتها في يدها. وقد بدا عليها الحرج:
«وهل يعرف خطيبك ستيفانوس شيئاً عن هذا الصديق؟»
«كلا... انني لا أجرؤ على إبلاغه»
«وماذا عن داروس ووالدتك هل يعرفان ذلك؟»
وأومأت جوليا برأسها وقد زاد خجلها:
«إنهما يعرفان كوستاس. لكنهما لا يعرفان كل شيء!»
وقالت توني في استغراب ودهشة:
«كل شيء؟ ماذا تعنين بذلك يا جوليا؟»
وردت وهي تتعثر في كلماتها:
«لم أكن لأفعل ذلك لو عرفت أنه لا يحترم الزواج بي».
وحدقت فيها توني وهي لا تصدق ما سمعته ثم قالت:
«أنت! ولكن، أنت تعرفين أن ذلك غير مسموح به في اليونان يا جوليا. كيف ذلك. انه محظور عليكن حتى الخروج مع شاب».
«الأمر يختلف في الجامعة. الأحوال تتغير. نكون بعيدات عن أسرنا وبيوتنا. وهكذا يكون لنا أصدقاء».
وصدمت توني:
«لماذا أحس بهذه الرعشة؟»
ومع ذلك بدأ جسمها يرتعش فعلاً وهي تقول:
«هل سيكتشف داروس ذلك؟»

«لا أعرف يا توني واستطردت باكية يجب أن أخبر ستيفانوس قبل أن نتزوج. أليس كذلك؟»
وفكرت توني ملياً. كانت تعرف من خلال إقامتها في اليونان أن جوليا ستواجه متاعب كبيرة عندما يكتشف عريسها أمرها.
«أعتقد أنك لابد أن تقولي له. نعم هذا واجب».
«وفي هذه الحالة سيعرف داروس. لأن ستيفانوس ربما يرغب في فك الخطبة. ويالها من مشكلة»
ونظرت إلى الفتاة بشيء من الأسى ثم قالت:
«ولماذا ارتبطت بستيفانوس؟»
«اعتقد داروس ووالدتي أنه من الأفضل أن أنسى كوستاس ونظراً لأن داروس يعرف ستيفانوس منذ فترة طويلة ـ اعتقد أنه سيكون زوجاً مناسباً».
وأصرت توني على أسنانها وقالت:
«فرض شقيقك عليك هذه الخطوبة لمجرد أنه يعرف هذا الرجل لأنه اعتقد أن ستيفانوس سيكون زوجاً صالحاً. إنني أكاد أجن عندما أسمع مثل هذه الأشياء. ولكنك الشخص الذي يدرك ما يريد، وليس داروس».
وقالت جوليا في شيء من العتاب المهذب والدهشة:
«ينبغي ألا تتحدثي عن زوجك بغير احترام. لأنه لم يرغمني على الارتباط بستيفانوس. أشار علي فقط بذلك، وكذلك فعلت أمي. وكان يمكن أن أرفض خطبتي لستيفانوس».
«هل تحبينه؟»
«كلا يا توني، إني أحب كوستاس».
«اذا لماذا ارتضيت بستيفانوس؟ هل أدركت الصعوبات التي تواجهك؟»
«لم أكن أعرف ماذا أفعل. لم أسمع عن كوستاس شيئاً منذ غادر أثينا في شهر حزيران يونيو الماضي. وكان داروس سيشعر بالدهشة لو أنني رفضت ستيفانوس».
وانفجرت جوليا باكية مرة أخرى، ثم استطردت قائلة:

«أحسست بالرعب، لأنني كنت أعلم أنني لو رفضت، سيسألني داروس عن السبب...»

«كان يمكن أن تقولي أنك تحبين كوستاس».

«لم أكن أرغب في الحديث كثيراً عن كوستاس. فربما يشك داروس في شيء. أنت لا تعلمين يا توني كم هو حاد الطباع، كنت أخشى أن يخمن ذلك، لأن وجهي كان يحمرّ خجلاً كلما ذكرت اسم كوستاس».

وتنهدت توني، كانت جوليا تطلب المساعدة، ولكن توني عجزت حتى عن تقديم النصيحة لها.

«ألم يقل كوستاس لك أبداً إنه يحبك؟»

«قالها كثيراً، ولم أكن لأتمادى معه في علاقتنا لولا ذلك. كنت أتوقع دائماً أنه سيتزوجني بمجرد الانتهاء من الجامعة».

«وأين يقيم هو؟»

«في جزيرة كوس».

وتطلعت توني إلى الزورق المقبل من هناك، وقالت:

«ومن هنا كانت رغبتك في أن يصطحبك داروس معه».

«كلا... في الواقع... لأنني حتى عندما أكون مع داروس نقيم دائماً في منزل زوج شقيقتي نتناول المرطبات ثم نعود إلى هنا... داروس يحب الرحلات البحرية ولذلك فإنه يحضر مارغريتا وبنايوتيس كلما أرادا زيارته. كلا... لم أكن قادرة أن أرى كوستاس، كيف أتصل به. وعد بالكتابة لكنه لم يفعل، لم يبعث رسالة واحدة طوال هذه المدة».

«ربما يكون مريضاً أو مشغولاً بشيء آخر».

«ليس مريضاً... لقد قابلته ابنة عمي، وأبلغها أنه لا يريد أن تظل أصدقاء بعد الآن».

كانت جوليا تلعب بالحصاة وألقت بها في البحر ومسحت دموعها وقالت:

«أفكر في نسيانه والزواج من ستيفانوس».

«لكنك تقولين إن ستيفانوس قد لا يريد الزواج منك...»

«إن لم أخبره بشيء عن كوستاس سوف يتزوجني...»

«وماذا يحدث بعد ذلك؟»

وبدت جوليا شاحبة وقالت بصوت مختلج:

«لا أعرف يا توني، لا أستطيع التفكير ماذا يمكن أن أفعل؟»

وشعرت توني بعجزها عن مساعدتها.

«وإذا كتب لك كوستاس... وإذا اكتشف أنه يحبك فعلاً... هل تستطيعين فسخ الخطبة؟»

«أترك ستيفانوس؟ نعم أعتقد ذلك».

«وهل يسمح لك داروس؟»

«إذا اعتقد أن كوستاس جاد فإنني متأكدة أنه سيسمح لي بفسخ الخطبة».

«إنك تدهشينني... كنت أعتقد أن داروس سيحملك على احترام الاتفاق فالخطوبة هنا ملزمة تقريباً كالزواج، هكذا يقال لي».

«إنها كذلك، ولكن داروس تهمه سعادتي، إنه عطوف جداً ولكنك لست في حاجة لأن أقول لك ذلك...»

«عطوف؟»

كانت نظراتها متجهة إلى القارب، لكنها استرجعت ذكريات لقائها الأول مع داروس. كان فظاً غليظ القلب. وما زال كما هو.

عاملها بشيء من الأدب الآلي أمام الخدم وتجاهلها تماماً عندما كانا منفردين معاً.

وكانت توني تحرص على ألا تنفرد به كثيراً. لكنها لا تعبأ بلا مبالاته. كان الزواج ضرورة ماسة ولم يكن أكثر من وضع مؤقت لا تقوم الصداقة بأي دور فيه.

أما بالنسبة الى المعاشرة فكانت توني ترتعد في المناسبات النادرة التي تخطر فيها الفكرة على بالها. كان داروس قد أعلن بصورة قاطعة أنه سيتزوج من فتاة يونانية تعرف مكان المرأة. وأشفقت توني على هذه الفتاة المجهولة التي سيقع نظره عليها ذات يوم فلا تثير فيه الا الرغبة فقط.. شكراً للسماء أن عينيه لا تتطلعان إليها أبداً بهذه الرغبة. هكذا فكرت توني عندما نظر اليها

داروس مرة بدون اكتراث وهي ترتدي لباس البحر وترقد على العشب تستمتع بالشمس.

لم تكن المناوشات قد بدأت بينهما بعد لأنه بعد الاسبوع الأول أمضى أسبوعين في أثينا. وعند عودته أحضر معه شقيقته التي تزوره ثلاث مرات كل عام. ولذلك فلم تكن هناك فرصة أمام توني لتبدأ المعاملة التي تعتزم ممارستها كعقاب على كل هذه الاهانات التي عانت منها.

واتجه الزورق بسرعة الى منطقة الرسو، وفي الحال تمّ تقديم توني الى مارغريتا وزوجها، ولم يكن أي أحد منهما يعرف السبب الحقيقي للزواج.

كانت والدته السيدة بتسوس قد قالت بعد الزفاف:

«ليست هناك حاجة لأن يعرف الآخرون شيئاً عن ظروف زواجكما. فسوف يقلق الفتيات أن تعرفن برغبة جدّ هن في الانتقام.»

وكان ابنها قد وافق على هذا الرأي. كانت توني تعرف أن الأجداد يحظون باحترام كبير في اليونان. لكنها تساءلت في دهشة: كيف يستطيع أي شخص أن يحب مثل هذا الكهل الشرير!

«سعدنا جداً بلقائك».

قالتها مارغريتا وزوجها وهما يصافحانها، كانت الحيرة تبدو على وجه الاثنين، وتجنبت مارغريتا النظر الى شقيقها وقالت:

«دهشنا جداً عندما علمنا أن داروس تزوج فتاة انكليزية».

وردت توني في نبرات رقيقة في ظاهرها فقط:

«ولماذا؟ ألا يحب شقيقكم الانكليزيات؟»

وكانت نظرة واحدة من داروس كفيلة بأن تعيدها الى اتزانها وتجنبها مثل هذا التهور.

وقالت مارغريتا بسرعة:

«بالطبع إنه يحب الانكليزيات. فهو قبل كل شيء نصف انكليزي».

ولاحظت توني الصلابة التي بدت في عينيه عندما سمع أخته تصفه بأنه نصف انكليزي. كان يونانياً أكثر... هكذا قررت توني وهي ترى جانب وجهه الجامد الداكن عندما التفت ليقول شيئاً لزوج أخته. وبدأت تتساءل ترى هل

ضايقه زواج أمه الذي فرض عليه هذا الدم الانكليزي البغيض؟

وفي تلك الليلة تلقت توني أفضل معاملة ممكنة من زوجها أثناء العشاء ومع ذلك لم تبد منه أي حركات تنم عن عاطفة ولاحظت أن مثل هذه الحركات غير متوقعة. كان اليونانيون يتزوجون زواج مصلحة ولا يعتبرون إظهار العواطف نحو زوجاتهم أمراً ضرورياً.

وبعد بضعة أيام سافرت مارغريتا وزوجها إلى أثينا واصطحبا معهما جوليا، تاركين توني وداروس وحدهما. وبعد أن أقاما معاً نحو أسبوعين كفريا، أحست توني بالملل لدرجة أنها قررت أن تبدأ رحلاتها الى جزيرة أو جزيرتين. لكنها تسلمت رسالة من والدها جعلتها تقرر العودة الى بلدها. وأرجأت بذلك رحلاتها.

وأبلغت زوجها قائلة:

«والدي يريد رؤيتي، ولذلك فقد قررت أن أمضي شهراً كعطلة في انكلترا.

ولأول مرة شعرت بالاهتمام في تعبيراته. ولم يكن صعباً عليها أن تستشف الارتياح الذي بدا عليه للتخلص منها لفترة.

وكان رده السريع تأكيداً لما استنتجته توني إذ قال:

«انها فكرة مناسبة جداً، الحياة هنا تبدو مملة لك.

وردت قائلة:

«ان ما تقوله أقلّ من الواقع. الحياة هنا لا يمكن أن تكون أكثر مللاً مما هي عليه هنا.»

ورفع حاجبيه وسألها:

«ولكن ما الذي تتوقعين أن افعله؟ لست هنا لأوفر لك التسلية والترفيه».

وبدا عليها الغضب. معنى هذا أن هذا الشاب المتغطرس لا يعنيه أن حياتها تضيع هباءً في انتظار وفاة ذلك القاتل الخلق.

وقالت وهي تكشف عن أفكارها:

«وربما أبقى في الخارج لفترة أطول».

وقال داروس في هدوء:

«إن شهراً واحداً هو أقصى مدة لك».

وردت عليه في لهجة أكيدة محاولة إفهامه أنها ستبقى في الخارج طالما رغبت في ذلك.

ولكنه استطرد مسرعاً، عندما فرغت من كلامها:

«لا أعتقد ذلك... لأن جدي يعتزم القيام بزيارة لنا في نهاية الشهر المقبل وهو يتوقع أن يجدك هنا».

«وإذا لم يجدني؟»

«إنها رغبتي أن يجدك هنا. في اليونان لا يسمح للزوجة بأن تغادر بيتها حسب رغبتها. ويمكن أن يثير غيابك بعض الشكوك بأننا تزوجنا فقط لاحباط خططه».

«وما الفرق؟ إنني مازلت زوجتك. ولذلك فإنني أرجح ألا يفرر فجأة أنني ينبغي أن أقتله».

ورأت شرر التحذير في عينيه.

وقال داروس في حنق:

«لا أريد أن أجازف بشيء. ويتعين عليك أيضاً ألا تجازفي بشيء إذا كنت تفكرين بتعقل».

واستطاعت توني أن تكبح جماح غضبها وقالت:

«سوف أفكر في ذلك».

«ستفعلين ما أقوله».

وإنه هشت من هذه العبارة، وحدقت في وجهه قائلة:

«يجب أن أحذرك يا داروس، إنني أفعل ما اشاء. وإذا أردت البقاء في الخارج فسوف أبقى».

وصمتت برهة ضاقت عينا زوجها. وكان منظره يحقرها. واستطردت بسرعة:

«أريد بعض المال لتغطية نفقات السفر».

ورد في دهشة:

«تريدين نقوداً مني؟»

«بالطبع، وإلا فممن اطلب؟»

وشعرت توني بالتوتر حتى قبل أن يتكلم. وقال:

«انك لن تحصلي على نفقات الرحلة الجوية مني. لديك المبلغ الذي تتقاضينه

شهرياً. وإذا كنت تعتزمين القيام بزيارة لانكلترا، فالمفروض أن تدخري هذه الرحلة. لا بالتالي، ينبغي ألا تطلبي نقوداً مني أبداً».

وأحست توني بإهانة بالغة وحدقت في هاتين العينين القاسيتين وقالت:

«أبداً... ولكنني أعتزم السفر».

ووضع يده على فمه حتى لا يتثاءب وقال:

«سافري بكل ارتياح إذا استطعت ذلك».

وأثارت الحركة غضبها وصرخت قائلة:

«ولكنني لن أستطيع رؤية والدي إذا لم تعطني المال».

لم تضع توني في اعتبارها أبداً أنها ستواجه صعوبة في ذلك. وكانت تعتقد أن الحصول على المال منه هو جزء رئيسي من خطوتها للانتقام. واستطردت قائلة:

«أرسلت رداً على رسالتها مؤكدة اعتزامي زيارتها».

وأضافت وهي ترتعد غضباً:

«ويتعين عليك أن تعطيني مالاً».

وظل داروس ملتزماً الصمت في فتور. ومضت توني تقول في نبرة أكثر هدوءاً:

«ليس لدي مال على الأقل ليس هناك ما يكفي لتغطية نفقات الرحلة الجوية».

كان داروس قد التقط تمثالاً صغيراً ثرياً. وأخذ قطعة نادرة من التحف التي لديه محاولاً الظهور بأنه لا يهتم بشيء، وأنه لن يقبل مزيداً من النقاش.

وضربت توني الأرض بقدمها، لكن سرعان ما ندمت على هذه الحركة الصبيانية عندما رأت عينيه تنتقلان من التمثال في يده وتتطلعان إليها في احتقار شديد. وشعرت توني بالغضب لأن هذا الرجل القاسي يستطيع أن يحتقرها ويشعرها بالمهانة وقالت في حدة:

«لديك أموال كثيرة، مائة جنيه ليست شيئاً بالنسبة إليك».

ونظر إليها وعدم في نبرات متكاسلة ولكن خطيرة:

«كوني عاقلة يا توني . لا تتبعي هذا الأسلوب معي، عندما أقول شيئاً أعني ما أقول. انني أرفض إعطاءك المال... وهذه هي كلمتي الأخيرة».

واحست توني أن مشاعر الغضب ستخنقها، لكنها تمالكت نفسها وهي تقول في حنق:

«ولكنها ليست كلمتي الأخيرة، وعدت والدي بأنني سأزورهما. وسوف أفعل ذلك، إنهما يتطلعان إلى رؤيتي، ولن أخيّب رجاءهما».

«اذن عليك أن تستخدمي بعضا من مبلغ التسوية الذي صممت ان تحصلي عليه».

«لا أستطيع؛ أقصد أنني لن ألمس هذا المال».

كانت توني قد أرسلت ذلك المبلغ إلى الخارج وكانت تأمل أن تساعد والديها في التغلب على الافلاس.

وبدا الغضب في عيني داروس. كانت في نظره طماعة بخيلة وهذا ما يتمشى تماماً مع رأيه في النساء الانكليزيات.

ورد داروس وقد بدا عليه الملل:

«في هذه الحالة ليس هناك خيار لك الا أن تتنازلي عن عطلتك».

واعترفت توني في نهاية الحوار بعد هذه العبارة القاطعة منه أن خططها للانتقام منه سوف تواجه بعض المصاعب. نظرة واحدة إلى ذلك الفم والفك جعلتها متأكدة أن زوجها لن يلين، ولو كان ذلك حتى من أجل أن تبتعد عن وجهه لفترة ما.

واحمر وجهها بالغضب وخيبة الأمل. كانت النتيجة الوحيدة أنها أضافت لمحة من الرضى إلى ذلك الوجه المتغطرس. وغادرت الغرفة بسرعة، وكانت تفكر:

«اذا كان داروس قد امتنع عن دفع نفقات الرحلة الجوية الى انكلترا، فكيف ستحصل منه على النفقات الباهظة لرحلاتها الأخرى التي كانت تعتزم القيام بها.لابد من إيجاد طريقة لارغامه على ذلك».

وفي اليوم التالي، حجزت تذكرة لرحلتها الجوية في شركة الطيران في رودوس وبعد أن سلمها الموظف تذكرتها قالت:

«أرسل فاتورة الحساب الى زوجي».

وابتسمت ثم أخرجت بطاقة داروس وقدمتها للموظف، ونظر الموظف في

احترام بالغ، وقال:

«بالتأكيد يا سيدتي».

وبعد يومين كانت توني في برمنغهام مع والديها، ومن هناك اتجهت الى دورست لتلتقي بشقيقتها وأولادها.

وقالت شقيقتها:

«إنه شئ رائع أن أراك، إنك تبدين في حالة طيبة. دهشنا جميعاً عندما سمعنا بزواجك، لا بد أنه كان الحب من أول نظرة».

حدث ذلك بسرعة. ما رأي والديك في هذا الزواج؟»

كانت توني تستمع الى استفسارات شقيقتها وهي ترى مظاهر الفقر التي تحيط بالمكان الذي تقيم فيه. لا شك أنها تواجه متاعب كبيرة في تربية صغارها الثلاثة. فالمشكلة أنها لا تلقى أي مساعدة حتى من والديها.

وردت توني:

«كانا سعيدين بزواجي».

الواقع أن هذا كان صحيحاً، فقد كانت توني تتمتع بالحكمة والاتزان ولم يتصورا لحظة واحدة أن زواجها لن ينجح.

«انني احسدك».

كانت توني تشعر أن كل أفكار بام مازالت ترتبط الآن بزوجها فرانك الذي توفي وهو في الخامسة والثلاثين ضحية الجلطة الدموية.

كان زوجاً رائعاً. وكان يحبها كثيراً.

وسألتها توني:

«كيف حالك. كيف تدبرين أمورك؟»

كانت توني تتحدث إلى شقيقتها وهي تحس بالقلق عندما شاهدت بام تقوم برتق جوارب أبنائها التي بدت في حالة غير قابلة للاصلاح.

اعتادت توني أن تقدم لشقيقتها ولصغارها الملابس والهدايا. لكنها كانت تحرص دائماً على ألا يفهم أنها تقدم هذه الأشياء كمعونة لها، وألا رفضتها بام. كانت لها كبرياء شديدة. والواقع الهدف من زيارتها لأهلها هو تقديم مزيد من

الهدايا لهم. ولم تكن توني تعبأ بكشف الحساب الكبير الذي سيتسلمه داروس قريباً من المتجر بالاضافة إلى فاتورة حساب التذكرة الجوية، هذه الأموال كلها سوف تدفعها إلى داروس. أما الآن فإنها تشعر بالمتعة كلما تخيلت الصدمة التي سيصاب بها داروس وهو يتسلم كشف الحساب. لابد أنه سيعترف بهزيمته. حان الوقت لينزل هذا المتغطرس من برجه العالي!

وقالت بام:

«إنها مشكلة صعبة يا توني، خلال أسبوع واحد سيكون كل الصغار في عطلاتهم المدرسية، ومعنى ذلك أنني لا بد أن أتخلى عن عملي لرعايتهم، وسوف يحصل شخص آخر على هذه الوظيفة وعليّ بعد ذلك ان أبحث عن عمل آخر في سبتمبر ايلول».

وردت توني عابسة الوجه:

«ألا يحتفظ صاحب العمل بوظيفتك؟»

«لا يستطيع، إذ كيف يقدر على ذلك لمدة ستة أسابيع».

«أليس من الممكن له الحصول على مساعدة موظفة مؤقتة حتى عودتك؟»

«ليس من العدل أن اطلب منه. وبالاضافة إلى ذلك من الذي سيقبل العمل لفترة قصيرة كهذه».

وهزت رأسها في استسلام وهي تقول:

«اعتدت على هذا التغيير غيرت وظيفتي مرتين في العام الفائت ألا تذكرين؟»

«لقد عرفت أنك غيرّت وظيفتك ولكني اعتقدت أنك انت اخترت ذلك. لم تذكري أبداً هذه المصاعب في رسائلك الي! وما الفائدة؟ لو وجدت شخصاً يتولى رعاية الصغار خلال عطلة الصيف؛ ولكنهم أطفال جامحون. يصعب السيطرة عليهم في كثير من الأحيان ومع عدم وجود رجل في البيت لا يبالي الأولاد بالأم».

وسكتت بام وهزت كتفيها في يأس. ليس لا تقلّ عن أختها شقاوة وهذا شيء متوقع فهي دائماً في صحبة ولدين. وتنهدت بعمق وقالت لا يمكن أن أقنع أحداً برعايتهم. ثم مدت يدها لتأخذ فردة الجورب الثانية وطوتها مع الأخرى والتقطت قميصاً... كانت يائسة بالية وكانت تريد أن تقلبها حتى تخفي الجز

البالي تحت.

وراءت فكرة لتوني:

«لماذا لا ترسلين الصغار إلى والدتي لرعايتهم. لو أخذتهم والدتي سيكون من الممكن أن تأخذي أنت نفسك عطلة أسبوع حتى...»

وهزت بام رأسها بالنفي...

«يصعب على والدتي أن تبقى في المتجر. أنفقتها الأموال التي بعثت بها إليها. ولكنها لا يقدران على مواجهة نفقات إحضار مساعد معهما، ولو حتى الفترة. كلا، إن والدتي لا تستطيع تحمل رعاية الصغار».

«نعم أعتقد أنك على صواب».

وجاءتها فكرة، ولمعت عينا توني، يالها من صدمة ستصيب زوجها المغرور!

«سوف أخذهم معي عند عودتي لمدة ستة أسابيع!»

وحدقت بام في وجه شقيقتها بدون أن تصدق ما تسمع:

«أنت، ولكن زوجك، لن يقبل وجود ثلاثة أطفال يحتل هذه الشقاوة في بيته لمدة ستة أسابيع كاملة».

وردت توني:

«اليونانيون يحبون الأطفال، أنا متأكدة ان داروس سيسعد جداً وجودهم».

أما توني فكانت تتصور الموقف المزلي الذي سيتعرض له داروس أثناء وجودهم. كانت هذه الفكرة تضيف إلى عينيها بريقاً يزيدها جمالاً. أما قلبها فكان مشحوناً بمشاعر الانتقام. نعم إن داروس لا تهمّ لن يشعر بالضيق كما سيشعر خلال الأسابيع الستة المقبلة!

ووجهت بام حديثها إلى توني:

«لكنني قلت لك إن هؤلاء الأطفال لا يمكن السيطرة عليهم أبداً. في بعض الأوقات أشعر بالخوف إذ أشك حتى في أنهم معرضون للانحراف».

وضحكت توني:

«غير معقول... صحيح إنهم أطفال أشقياء... لكنني لم ألاحظ أنهم يختلفون أبداً عن غيرهم من الأطفال في مثل أعمارهم»

«أنا قلقة يا توني... لا شك أن زوجك سيغضب منك. أنا متأكدة من هذا. لعلني بالغت في تدليلهم بعدما فقدوا أباهم. فأصبحوا جامحين لا يمكن السيطرة عليهم».

«ليس هناك ما يقلق... سوف آخذهم معي وأعيدهم إليك مع افتتاح المدارس في شهر سبتمبر - أيلول. وتستطيعين أنت الاحتفاظ بوظيفتك».

«والنفقات يا توني؟ تصوّري كم ستكلف هذه الزيارة، ومن سيدفع كل هذه الأموال؟».

«داروس يسعده جداً أن يدفع كل شيء، أؤكد لك ذلك».

«لن تستطيعي السيطرة عليهم».

«كلما كانوا أكثر شقاوة كلما أحببتهم أكثر».

«لا يمكن أن تفرضي أطفالي على زوجك بدون حتى أن تعلميه».

ولكن ذلك هو بالضبط ما كانت توني تعتزمه. فسحبت كل مدخراتها من مكتب البريد، وحجزت تذاكر ذهاب فقط وبعد أيام قليلة اصطحبت الأطفال الثلاثة معها إلى بيتها في لينتوس.

كان داروس خارج البيت عند وصولهم، ولكنه حضر بعد الغداء. ولم يعرف على الفور بوجود الأطفال الثلاثة لأنهم كانوا على الشاطئ. إلا أنه عبر الحديقة حيث كانت توني جالسة في مقعدها تقرأ. وكان الغضب يتفجر من عينيه:

«هل يمكن أن أعرف لماذا تكتبين كشف الحساب باسمي. ماذا تقصدين بذلك؟»

ورفعت توني نظرها إليه. كان يحاول قمع غضبه لكن توني استعدت لكل ما يمكن أن يحدث. ونظرت إليه في هدوء وقالت:

«تقصد أجرة السفر بالطائرة. أبلغتك أنني مسافرة إلى انكلترا. وذهبت بالفعل. تصرفت طبقاً للقانون لأنني كنت أريد أن تفهم أنني لن أسمح لنفسي بأن أكون خاضعة لسيطرتك بأي شكل. لقد رغبت في رؤية أسرتي. وأنت باعتبارك زوجي كان يجب أن تعطيني المال بدون مناقشة. كان يمكن أن تعطيني هذه النقود، فقد اضطررت أخيراً أن تدفعها...»

«هل فكرت في الحرج الذي سببته لي بتصرفاتك... أعدت قائمة الحساب في بادئ الأمر إلى المتجر قائلاً إنها لا تخصني... وأنّبت المدير لعدم كفاءته».

وكادت توني تنفجر ضاحكة عندما أدركت ما حدث له من حرج وقالت:

«لو دفعت نفقات سفري بالطائرة، لما حدث أي شيء من هذا. تصرفك لم يكن حكيماً... ولكنها قلت لك اضطررت لدفع نفقات سفري في نهاية الأمر».

وسادت فترة من الصمت، قطعها داروس بقوله:

«إنك تبدين متأكدة تماماً من أنه يتعين عليّ أن أدفع في نهاية الأمر».

وقبل أن تفطن توني لنواياه، أمسكها وأخذ يهزها بعنف ودفعها بقوة إلى المقعد وشعرت بجسمها كله يرتعد وقال:

«الأموال التي تدينين بها لي الآن سوف تسدد من الحصة المخصصة لك. ولن تحصلي على شيء إلى أن تسددي بالكامل كل ديونك إن حصتك سوف تتوقف».

«توقف حصتي، لا تستطيع»

لماذا لم تفكر في مثل هذا الاحتمال؟

ونظر داروس إليها نظرة المنتصر وهو يقول:

«أوقفت مخصصاتك فعلاً. وسوف يبلغك البنك عندما أعطيه تصريحاً باستئناف دفع حصتك من المال».

«لن أستطيع أن أتدبر الأمر. انا في حاجة إلى بعض المال. كنت أعتزم تسديد فاتورة المتجر بمجرد أن أتسلم مخصصاتي في الشهر المقبل».

وأطلق داروس ضحكة قصيرة وقال:

«إنك متسرعة التفكير، سوف أمنحك هذا المال. تسددين فاتورة الحساب؟ هل تتوقعين أن أصدق أنك كنت تعتزمين إعادة تسديدها إليّ. كيف أنفقت هذه الأموال؟ أم أنه ليس من حقي أن أسأل؟»

«اشتريت هدايا لأولاد شقيقتي وإذا كنت لا تصدقني فلن يهمني ذلك».

«أولاد شقيقتك؟ لديك شقيقة إذن؟»

«إنها أرملة، ولا تستطيع إعاشتهم. اشتريت بعض الملابس والأحذية لهم».

وبلغ الدمع تملأ عينيها فأدارت وجهها بسرعة. كيف تستطيع أن توفر للأطفال عطلة ممتعة بدون نقود. وأحست توني أنه يجب عليها أن تتنازل عن عزة نفسها وأن تطلب منه أن يقرضها بعض المال... وعندما همت بأن تحدثه عن ذلك سمعت أصوات الأطفال تقترب... وفجأة ظهر الصغار الثلاثة في الحديقة

يركضون ويصرخون وهم يمارسون لعبة الهنود الحمر.

وصعق داروس أنه يواجه عاصفة هوجاء. وسأل روبي الصبي الأول الذي توقف عن الركض.

«ماذا تفعل هنا؟ أخرج من الحديقة فورا... أين يقيم هؤلاء الأشرار.

وردت لويس الصغيرة:

«إننا نقيم هنا... من أنت؟ هنا بيت خالتي توني.»

وكانت لويس لا تقل وقاحة عن أخويها.

«هنا!»

قال داروس هذا والتفت إلى زوجته التي تحاشت النظر اليه.

«هل أحضرتهم معك؟»

ولم تستطع توني الكلام في أول الأمر لكنه أدار وجهها بحركة سريعة وظل ممسكاً بذقنها حتى قالت:

«أحضرتهم معي، حتى تستطيع بام أن تستمر في العمل أثناء العطلة المدرسية... وسوف يبقون معنا ستة أسابيع.»

قالت هذا بنبرة تحد وقد استردت شجاعتها.

بقي داروس صامتاً. وكان كل انتباهه منصباً على توني التي وجدت نفسها ـ رغم تصميمها على مواجهة أي شيء منه ـ تتفاءل من أجل الاحتفاظ بقدرتها على التصدي له.

كان الأطفال الثلاثة يجرون في الحديقة وكان ديفيد ينظر إلى داروس كأنه هو الذي تعدى على ممتلكاتهم. أما روبي فقد أخرج له لسانه. وأحست توني بالفزع، ونهضت عن كرسيها وطلبت إليهم أن يدخلوا البيت.

ودخل الأطفال الثلاثة إلى البيت، وساد الصمت فترة، ثم تحدث داروس في نبرات هادئة خطيرة:

«أريد أيضاحاً لذلك من فضلك.»

وبللت توني شفتيها وقالت:

«قلت لك إنني أحضرتهم معي حتى تستطيع شقيقتي أن تعمل أثناء العطلة المدرسية، ولولا ذلك كان يتعين عليها أن تترك وظيفتها، وهي لا تقدر على ذلك.»

وسألها بهدوء:

«هل تحاولين إقناعي بأن بواعثك على هذا التصرف لا تتسم بالأنانية؟»

«بالتأكيد إنها بواعث غير أنانية.»

«لا تكذبي! أحضرت هؤلاء الأطفال لمضايقتي! إنني لا أفهم لماذا تمارسين هذه المتعة التي تتسم بالسادية ولكنني أحذرك: إنك تتعاملين مع الرجل غير المناسب. لست واحداً من الانكليز التافهين...»

«وهل تجرؤ على إهانة الانكليز؟ إنهم أفضل من أي أناس تعرفهم! وهم أزواج أحسن بكثير منكم! إنك بالنسبة الي لست سوى اجنبي مغرور، ولن أسمح لك بإهانة الشعب الذي أنتمي اليه... ويجب أن تكون حريصاً فيما تقول في المستقبل.»

كان وجهها ساخناً ويداها منقبضتين ولم تسترد هدوءها عندما رأت وميض الدعابة في عيني زوجها. وقال لها:

«اسمحي لي يا توني أن أقدم لك نصيحة طيبة. لا تحاولي اختبار قدرتي على الصبر أكثر من ذلك. صدقيني ان صبري لا يمتد إلى الأبعاد التي تتصورينها.»

وابتعدت عنه توني وهي تقول إنه ليس زوجها ليس له سلطة عليها. وتهديداته لا تخيفها. ومضت تقول:

«لن أخشاك حتى لو كنت زوجي حقاً.»

وكانت تعني ما تقوله برغم أنها اعترفت لنفسها بعد لحظات من التفكير أن هذا الأجنبي الأسمر يستطيع أثارة المتاعب لها.

حقاً أنها لا تخشى شيئاً. إنها لم تحس بالخوف عندما واجهت الموت. ولذلك فمن غير المحتمل أن تفقدها تهديدات هذا الرجل ما تتمتع به من ثبات.

وبعد فترة من الصمت قال داروس:

«وهكذا فانا لست زوجاً حقيقياً لك؟ أخبريني ما الذي تقصدينه فعلاً بذلك! أذكر أن زواجنا كان قانونياً.»

كان داروس يهزأ بها. وظلت صامتة. لم تكن كلماتها كافية للرد عليه، وتصورت أن توجيه صفعة إليه سيجعلها أكثر ارتياحاً. واستطرد داروس قائلاً:

«انا زوجك فعلاً، من سوء حظي، ولو لم يكن شقيقك سائقاً فاشلاً لما حدث شيء من هذا.»

وكاد غضبها يحطم كل الحدود، وقالت:

«كيف تجرؤ على توجيه اللوم لأخي. إنك لو لم تكن تحب جدك بهذا الولع المجنون لما حدث كل ذلك. هذا الرجل يجب أن يحتجز في مستشفى المجانين».

ودهشت تونى عندما ضحك داروس قائلاً:

«وهكذا وصل بنا الحال إلى أن نتبادل الشتائم وأنت تقولين إننا لسنا متزوجين.»

وتغيرت نبرة صوته وهو يقول:

«لكنك لم توضحي لي ماذا تقصدين عندما تقولين إنني لست زوجاً حقيقياً لك؟»

«أنت تعرف جيداً ما أعنيه».

«من السهل جداً تصحيح هذا الوضع، وتذكري ما حذرتك منه... لا تثيريني أكثر من ذلك».

وجف حلقها وحاولت تونى أن تهدئ من نفسها. وتذكرت أن اليونانيين من أكثر الشعوب ميلاً إلى الغزل والحب، وأن زوجها لا يختلف كثيراً عنهم، ولذلك يتعين عليها ألا تجازف بشئ فقد يصبح وجود زوجة معه بمثابة إغراء لا يمكن مقاومته ذات يوم.

وقالت بصوت يشوبه الخضوع:

«الأفضل أن أذهب إلى الأطفال، إنهم ينتظرون الشاي».

ورد داروس في نبرة حاسمة:

«شاي في الثانية بعد الظهر؟ لن يبقوا هنا... هل تفهمين ذلك؟»

وقفز قلبها لكن ما لبثت أن هدأت وقالت في تحد:

«لكنهم أقربائي وسوف يبقون هنا. أسفة لاحداث تغيير في نمط حياتك الروتيني الهادئ. لكن حاجة شقيقتي أعظم من حاجتك».

ورد في اصرار

«سوف تبعدين هؤلاء الأشقياء من هنا، وبسرعة».

واتجه الى الباب.

وقالت:

«هذا مستحيل حتى لو أردت أنا ذلك. فليست هناك أموال لنفقات سفرهم».

واستدار داروس بحنق ونظر اليها وهو لا يصدق:

«هل حجزت لهم تذاكر ذهاب فقط؟»

«لم تكن لدي أية أموال لحجز تذاكر العودة، ولم يكن لدى شقيقتي أي مبلغ للمساهمة في ذلك».

وارتسمت ملامح الغيظ على وجهه وهو يقول:

«لديك خمسة آلاف جنيه مدخرة في مكان ما. استخدمي بعضاً منها».

وفي هذه اللحظة تركها واتجه إلى الحديقة تاركا إياها تفكر فيما دار بينهما. واعترفت تونى رغما عنها بأن كلماته أثرت فيها. وأدت الى إشاعة المخاوف في نفسها، وإلى الاعتقاد بأن جميع خططها للانتقام منه لا يحتمل أن تنجح.

٤ ـ ثمار القسوة

بعد فترة من التفكير والتروي، استعادت توني رباطة جأشها. ما الذي يمكن أن يفعله زوجها؟ لن يستطيع إخراج الأطفال من البيت، ولذلك من الواضح أنهم يستطيعون البقاء. لكن عليها قبل انتهاء الأسابيع الستة أن تفكر في طريقة للحصول على نفقات عودتهم، وثمن تذكرتها هي أيضاً لأنه عليها أن ترافقهم. ربما تستطيع الاستدانة من والدها. نعم ستكتب اليه بعد فترة. لكنها لا تعرف كم سيمضي من الوقت قبل أن تستطيع سداد هذه النفقات. يا لها من ورطة أوقعت فيها نفسها نتيجة رغبتها المجنونة في الانتقام من داروس بسبب الاهانات التي وجهها اليها... كان من الأفضل أن تنسى هذه الاهانات، لكنها لم تأسف لاحضار الأطفال معها. كانت بام متعبة وكانت بالتأكيد ستنهار إذا لم تحصل على الراحة. وفجأة بدا لتوني أنه من الظلم أن يملك داروس كل هذه الثروة في الوقت الذي تشعر فيه بام بالحاجة الشديدة... لو كانت هناك طريقة لتأخذ بها قدراً صغيراً من أموال زوجها وتنقلها الى بام. ولكن لم يكن من الحكمة التورط أكثر... تأكدت الآن من صلابة داروس ومن الحماقة ألا تستفيد من الدرس الذي تلقته.

وعندما اقتربت توني من البيت سمعت أصوات الأطفال يطالبون ماريا بإعداد الطعام لهم. كانوا يوجهون إلى المرأة وقاحات شديدة لم تكن قادرة على تفسيرها أو فهمها، لأن توني كانت تسمعها تتحدث إليهم باليونانية.

«لا تعاملوني بهذه الوقاحة، وسوف تأكلون في الموعد المناسب وليس قبل ذلك...

اخرجوا من مطبخي الآن كلكم. إنكم عصابة من السفاحين. وإذا لم تخرجوا في الحال سأستخدم معكم المكنسة...»

ورد روبي في صوت مرتفع يدل على السخرية:

«ماذا تقول هذه المرأة... إنها لا تستطيع أن تتحدث الانكليزية؟»

واسرعت توني وسمعت لويس تقول:

«أعتقد أنها قالت سوف تطاردني بالمكنسة، لأنها أشارت إليها. ما رأيكم... هل نجعلها تطاردنا؟ سيكون هذا متعة كبيرة؟»

ورد ديفيد:

«تطاردنا، إنها سمينة جداً ولا يمكن أن تجري ياردة واحدة».

وصرخ روبي:

«أنت على حق، إنها كالحيوان البدين».

وسارعت توني إلى المطبخ، ووصلت في الوقت الذي كان فيه الطفل يثير غضب المرأة، وينظر إلى داروس نظرة جريئة، ثم صرخ صرخة مدوية وحدقت توني في داروس ـ وقد حضرت على عجل ـ وهي تقول:

«ضربته... كيف تجرؤ على المساس بابن شقيقتي؟»

«ما فعلته ليس الآ مقدمة... وفي المرة المقبلة سوف أضعه على ركبتي واصفعه».

ونظر إلى الآخرين وهو يقول:

«هل ترغبون في تجربة ذلك؟»

وهز الصبي رأسه واحتمى خلف ظهر خالته.

ونظرت لويس إلى خالتها وهي تقول:

«لا... إنني لا أحب هذا الرجل، اطلبي إليه أن يرحل».

وردت توني:

«يا عزيزتي هذا منزله؟»

وقاطعها داروس في حنق:

«أنتم الذين سترحلون إلى منزلكم، والآن عليكم أن تدخلوا إلى الغرف التي خصصت لكم، ويجب ألا يحاول أحدكم النزول إلى هنا بدون إذني. هل تنظرون؟»

واستفسرت لويس:

«هل يتعين علينا أن نفعل ما يقول يا خالتي؟»

وأومأت توني برأسها:

«ولكن الشمس ما زالت ساطعة في الخارج ونحن نريد اللعب على الشاطئ...»

وحاولت توني أن تبدو جادة وهي تقول:

«اصعدوا جميعاً إلى الطابق الأعلى...»

وقال داروس في صوت مرتفع:

«اطيعوا ما أقوله فوراً... ولا شيء آخر».

وصعد الأطفال السلم في صمت.

والتفت إلى توني وقال:

«أما أنت فأعتقد أنك تستحقين أيضاً الحبس في غرفتك».

واندفع الدم إلى وجه توني. كان هذا الرجل بالتأكيد أكثر إنسانية من الزوج الصامت اللاهي الذي عرفته. ولكنه في الوقت نفسه كان يثير فزعها. من يدري لعله لا يتردد في تنفيذ تهديده. هذا ليس بعيد الاحتمال وهو في مثل هذه الحالة من الغضب الشديد وخاصة إذا ارتكبت حماقة أثارت غضبه أكثر ونسيت وجود خادمته. وأخيراً استدار وانصرف ولكنه أمر توني أن تلحق به في غرفة جلوسه.

«أغلقي الباب».

وأطاعته توني في هدوء.

وجلس داروس على مقعد وتركها واقفة. وهو موقف لا بد أن يشعل غضبها الذي استشاط بالفعل بعدما طلب منها بغطرسة إغلاق الباب. وأسند ظهره إلى مقعده وهو يقول:

«أرجو أن توضحي لي ما أراه. بقيت أفكر خلال الدقائق القليلة الماضية في هذا الموقف لكني لم أجد سبباً معقولاً واحداً لكل هذه المحاولات التي تجعل منك عاملاً مزعجاً».

سبب معقول! وللحظة شعرت برغبة في أن تقول له الصدق. أن تخبره بأنه كان على حق في كل ما قاله. ولكنها قاومت الرغبة. فلم تكن قد تخلت تماماً عن فكرة عقابه. وردت قائلة:

«كلا... إنني لست مزعجة. أردت أن أعود إلى بلدي، ورفضت أنت إعطائي نفقات السفر».

«معك خمسة آلاف جنيه. ماذا فعلت بها؟»

«تم استثمارها».

لم تكن هذه كذبة. حسناً. كانت مجرد كذبة بيضاء. هكذا قالت وهي تحاول أن تهدئ نفسها.

«ولكنك تستطيعين سحب مبلغ منها».

وهزت توني رأسها وقالت:

«كلا إنني لا أستطيع سحب شيء منها».

«لا أصدقك. إنك تدخرينها، على أمل الحصول على المزيد مني ولكن لا تفكري في ذلك يا فتاتي، لست من الانكليز التافهين كما قلت لك».

ولشدة دهشتها وجدت نفسها تقول:

« داروس... أرجو ألا نعيد ما حدث من قبل... إنني لا أريد التشاجر معك».

وقاطعها:

«إنك تدهشينني. كنت حتى الآن تحاولين إثارتي والشجار معي».

«غير صحيح. لم نتحدث إلى بعضنا البعض حتى هذا اليوم».

وسكتت وقد احمرّ وجهها بينما رفع حاجبيه ثم قالت:

«شعرت بالغضب فقط عندما امتنعت عن إعطائي مبلغاً من المال لتغطية نفقات رحلتي إلى انكلترا. (ثم اعترفت برقة) تشاجرنا وقتها».

وعاد داروس إلى الحديث مرة أخرى عن موضوع سحبها بعض أموالها.

«يجب أن تفعلي ذلك. لأن هؤلاء الاطفال لن يبقوا في منزلي لحظة أكثر مما هو ضروري».

«سأبقي عليهم هنا طالما أردت أنا ذلك. هذا منزلي في الوقت الحاضر. ولذلك فإنني سأطلب من أسرتي أن تزورني. وأعتقد أنك تشعر بالقلق لأن الأطفال ربما يضايقون جدك عندما يحضر إلى هنا. إنني بإخلاص أرجو ذلك. لأنه يستحق بعض العقاب على ما فعله بي».

«جدي يتوقع أن يقضي أياماً هادئة هنا. وفي أي حال، سواء حضر أو لم يحضر، لن

ارضى بوجود هؤلاء الأطفال الوقحين في منزلي».
«سيرحلون بعد ستة أسابيع».

ورد بهدوء:

«يبدو أنك نسيت إنذاري لك يا توني، اسمعي نصيحتي، وأبعديهم خلال يوم أو يومين».

«لن أفعل ذلك، وحتى لو قررت أن أفعل ما تأمر به فإنني لا أملك نفقات سفرهم، أبلغتك بذلك من قبل».

«وخلال هذه الأسابيع الستة ـ هل ستكون لديك الأموال؟»

«والدي سيقرضني».

«ولماذا لا يستطيع إقراضك الآن؟»

وضاق فمها وحدقت فيه في غضب وقالت:

«لم أطلب منه بعد».

«إذن... اطلبي ذلك في برقية».

«إن الأطفال سيبقون هنا لأن شقيقتي تحتاج إلى العمل، ولن تستطيع ذلك إذا تواجد الأطفال في البيت... وعلاوة على ذلك فسوف تفقد وظيفتها إذا طلبت إجازة».

وتنهد في غضب وقال:

«لو كنت تهتمين بشقيقتك هذه، فلماذا لم تعطها بعض الأموال التي طلبتها مني؟»

«لم تكن لتقبلها لأنها عزيزة النفس جداً».

«ولذلك فإنها تستحق أن تكون في عوزه».

«إنك شخص بغيض».

«ألا تستطيعين نسيان تفاهتي الآن؟ الأمر الملحّ هو أن تتولي أنت رعاية هؤلاء الأطفال».

ونظر إلى وجهها طويلاً ولم تستطع توني رغم قراراتها أن تقمع فزعها التي كان يزحف في بطء. وعاد يقول:

«ولو كنت عرفتني لفترة أطول لأدركت أنني أعني ما أقول. انتهي الآن، وعندما

نلتقي مرة أخرى أرجو أن تكوني نفذت أوامري».

وغادرت توني الغرفة وهي تحترق غضباً. فليذهب إلى الجحيم. وكانت عازمة على ألا تخذل شقيقتها. واتجهت إلى غرفة الأطفال. وأدهشها ما رأت، لقد عبر الأطفال عن استيائهم من سلطة البيت بتصرفات تتسم بالفوضى تماماً. كان كل شيء في الغرفة مبعثراً. ألقوا الماء على الجدران. داسوا على مفرش السرير، حطموا الأباجورة الثمينة وألقوا بها على الأرض. ووقفت توني لحظة لا تستطيع الكلام. ثم انفجرت غاضبة وقالت:

«حذرتني والدتكم مما كانت تتوقعه منكم، ولكنني لم أصدقها. وكانت على صواب، إنكم ثلاثة من أوقح الأطفال الذين شاهدتهم. وأنا فعلاً آسفة لإحضاركم معي».

وقال روبي:

«ونحن أيضاً نشاركك الأسف... لقد ضربني ذلك الرجل»

وصرخت لويس... «أريد العودة إلى بلدي... أريد العودة الآن...»

«لن ترحلوا الآن، ولن تفعلوا ذلك قبل مضي ستة أسابيع. ومن مصلحتكم أن تسلكوا سلوكاً حسناً طوال هذه المدة».

وانفجرت لويس باكية. وحاولت توني أن تهدئ من روعهم فقالت:

«فلنعمل معاً لنعيد النظام إلى هذه الغرفة».

ولم تشترك لويس، ولاحظت توني احمرار وجهها، ربما تكون مريضة. وكانت لويس مريضة فعلاً فلزمت الفراش.

وزارها الطبيب في اليوم التالي، ونصحها بعدم مغادرة السرير بسبب ارتفاع حرارتها. وقال:

«إنها الحصبة. سوف أرسل إليها بعض الأدوية بعد الظهر».

وعندما نزلت توني من غرفتها تقابلت و داريوس التي بادرها بقوله:

«ماذا حدث لهذه الطفلة؟ شاهدت الطبيب خارجاً لتوه...»

« لويس مصابة بالحصبة ويتعين أن تبقى في سريرها...»

ولمحت الشرر يتطاير من عينيه وهو يقول:

«حسناً توصلت إلى ما تبغين الآن...»

«أؤكد لك أنني لم أدبر مرض الطفلة».

«كلا... ولكنها فرصة جاءت في وقت مناسب».

«إنك شخص بغيض... ألا تحس بأية مشاعر تجاه الطفلة المسكينة المريضة التي تطلب أمها الآن».

«الطفلة المسكينة! من الأنسب أن تقولي الشريرة الملعونة... ولكن من الذي أخطأ بإحضارها الى هنا؟»

وقالت توني مدافعة:

« لويس أفضل بكثير وهي معي هنا... بام لديها الكثير لتفعله بدون أن تزيد متاعبها في العناية بطفلة مريضة».

وزالت تعبيرات الغضب عن وجهه، وقال في دهشة:

«إنك تثيرين حيرتي... يبدو أن إهتمامك بشقيقتك أمر حقيقي... ولو كان الأمر كذلك فلماذا تبقين على الأموال التي أخذتها مني؟»

« بام لا تقبل إعانة... قلت لك ذلك من قبل».

«هناك طرق ووسائل أخرى لاعطاء النقود بدون أن تقدم كإعانة».

«هل تريد أن تعرف ماذا فعلت بهذه الأموال؟»

«إنني أعرف ما فعلت بها...»

«صحيح... هل تعرف حقيقة؟»

وبدا الاهتمام على توني وهي تنتظر رده:

«اختزنيها ولا تعتزمين إنفاق بنس واحد منها... إنك بخيلة جشعة يا توني».

«أشكرك... إنك أيضاً لا تتمتع الكثير بروح السخاء».

وضحك.

وحاولت توني التفاهم معه للحصول على جزء من مخصصاتها التي كان قرر وقفها، لكنه رفض ذلك، وقال:

«إذا تجرأت مرة أخرى وأرسلت لي كشف حساب سأنهال عليك ضرباً».

وقالت توني وقد سرت رعشة غريبة في جسمها:

«لن تستطيع السيطرة عليّ بأي عنف جسدي».

«ولماذا؟ هل تعتبرين نفسك نداً لي؟»

«أود أن أقول إنني سألجأ إلى الشرطة إذا تجرأت وحاولت حتى لمسي بأصبعك».

«أخشى ألا يفيدك ذلك... الزوج اليوناني من حقه أن يؤدب زوجته المخطئة».

كان في استطاعتها أن تخبره أنه نصف انكليزي... ولكن داروس كان يفضل اعتبار نفسه يونانياً. ورمقته توني بنظرة تحد، وقالت:

«باستطاعتي أن أخرج عن طاعتك».

«هذا صحيح... ولكن جدي في هذه الحالة سيعتبر الزواج منتهياً».

ولمعت عيناه بالسعادة بينما أضاف:

«في اليونان تعتبر المعاشرة الزوجية هي التي تقرر إذا كان الزوجان متزوجين حقيقة أم لا... ولا توجد بيننا معاشرة زوجية كما تعلمين».

وهز كتفيه ثم ضحك برقة عندما تسلل الدم إلى وجهها.

كانت تتمنى أن تناقشه... وأن تتهمه بالكذب ولكنها كانت قد أقامت في اليونان مدة كافية لتعلم أهمية الحياة الزوجية بالنسبة الى الزوج اليوناني.

والواقع أنها لم تكن تفكر حقيقة في ترك زوجها، كانت تأمل في التوصل إلى طريقة ما لجعله يدفع ثمن الاهانات التي وجهها إليها، ومع ذلك كان شاغلها الوحيد الآن هو كيفية الحصول على الأموال. ومضت الأيام وشعرت توني أن الأطفال أصبحوا أكثر هدوءاً، كانت توني تعتقد أن هذا الهدوء إنما يرجع إلى مرض شقيقتهم لويس، إلا أنها اكتشفت في اليوم الرابع عدم وجود روبي أثناء تناول الشاي.

وسألت:

«أين روبي؟»

ونظر ديفيد اليها قائلاً:

«في غرفته».

«ماذا يفعل هناك... اذهب اليه واخبره أن الشاي حاضر».

«إنه لا يستطيع النزول».

وخفق قلب توني سريعاً. وتمنت ألا يكون روبي مريضاً... يكفيها رعاية لويس أثناء مرضها... كانت الطفلة لا تثير المتاعب بسبب مرضها فقط، لكنها كانت شرسة ووقحة بطبيعتها ولعل هذا يرجع الى عدم وجود سيطرة أبوية.

الواقع أن الولدين كانا عنيدين لا يطيعان أحداً وبرغم أن توني كانت تشعر بالسعادة أحياناً لأنهما يزعجان زوجها لكنها كانت تشعر بالضيق والحرج حتى تنقض عليهما وتشبعهما ضرباً. كان الألم يحز في قلبها بسبب التلف الذي أحدثاه... كان هذا التلف يبدو أشبه بإجراء انتقامي. وعندما يحطمان قطعة أثرية نادرة وهما يتصارعان في غرفة الجلوس كانت تشعر بالأسف على فقدها أكثر مما تشعر بالغضب وهي تتلقى تأنيب زوجها.

وسألت بسرعة:

«ماذا تعني بذلك؟»

«هذا الرجل البغيض ـ أقصد العم داروس ـ طلب من روبي الصعود إلى الغرفة بعد الغداء، ولم يسمح له بالنزول مرة أخرى اليوم»

«العم داروس... كيف يحدث ذلك... ما الذي فعله؟»

«كان يتحدث في وقاحة إلى البستاني... وعندما طلب داروس منه أن يعتذر، خاطبه هو الآخر بوقاحة، ولذلك أمره بالصعود إلى الغرفة»

وأحست توني بمشاعر مختلفة، فبينما شعرت أن خطتها الأخيرة للانتقام من داروس فشلت، كانت تحس على النقيض بالارتياح لأن الاطفال اخذوا يخضعون لنوع من التربية السليمة ـ وأدهشها أن تقول فجأة له:

«العم داروس كان على صواب عندما عاقبه»

فنظر اليها ديفيد وهو يقول:

«هل تتفقين مع العم داروس؟»

«بالتأكيد»

«أود العودة إلى بلدي... لويس مريضة في الفراش و روبي معاقب في الغرفة، فماذا أفعل وحدي؟»

«باستطاعتك أن تقضي وقتك في القراءة... كما طلب منك»

وفي هذه الأثناء كان داروس يمر أمام الغرفة، ثم دخلها ونظر إلى ديفيد في جفوة. وقالت توني:

«أبلغني ديفيد أن روبي في غرفته بناء على أوامرك»

ونظر إليها والغطرسة بادية عليه حتى في الطريقة التي وضع بها يده على

الباب:

«هذا صحيح، هل لديك أية تعقيبات على ما فعلت؟»

ونظرت توني إلى ديفيد الذي كان ينتظر منها أن تنتصر لأخيه.

«كلا... ليس لي تعقيبات... ولكن أيتعين عليه أن يبقى في غرفته طوال اليوم؟ أليس هذا وقتاً طويلاً؟»

وأدهشه أنها لم تكن غاضبة ولكنه لم يفصح عن هذه الدهشة وهو يقول في نبرات هادئة:

«في الأحوال العادية تعتبر هذه العقوبة قاسية، ولكن روبي تم تحذيره مرتين، وكان يدرك جيداً ما يتوقعه إذا تجاهل التحذير الثاني»

«هل سيتناول أي طعام؟»

«أرسلنا الشاي اليه في غرفته»

ولم تبد أي تعليق فنظر داروس إلى ديفيد وقال:

«أتذكر القراءة التي نصحتك بها... تستطيع أن تحضر إلى غرفتي بعد تناول الشاي لتحدثني عنها»

واندهشت توني من مسلكه، إن السيطرة على الطفل شيء، والاهتمام به الى هذا الحد شيء آخر، لابد أن يكون شخصاً آخر غير داروس فما الذي حدث له؟

وقال ديفيد في تأدب وهو ينظر الى يديه الموضوعتين فوق ركبتيه:

«لم أقرأ شيئاً...»

«اعتقدت ذلك... ألم أحذرك. افرغ من الشاي ثم اصعد إلى غرفتك، وسوف تبقى مثل روبي حتى صباح الغد»

ونظر ديفيد إلى خالته مستعطفاً وهو يبكي:

«اريد العودة الى بيتي»

لم تكن قد استعادت صوابها بعد من الدهشة التي أصابتها.لم تكن تتوقع أبداً أن يكون في أخلاق داروس هذا الجانب من الطباع. كان هادئاً ومع ذلك كان حاسماً. الغضب الذي بدا عليه بعد وصول الأطفال تحوّل الآن الى اهتمام لا داعي له. ومحاولة داروس السيطرة على الأطفال لمجرد الدفاع عن النفس في حد ذاته أمر مفهوم. لكن محاولته التأثير عليهم بهذه الطريقة كانت شيئاً من

الصعب فهمه.

وفي هذه الليلة شعر الأطفال الثلاثة أن الأحوال تغيرت بالنسبة اليهم تماماً. أصبح هناك شخص ـ غير والدتهم العطوفة التي تستجيب دائماً لكل مطالبهم ـ يستطيع أن يتصدى لهم، وأن يضع قيوداً على كل تحركاتهم.

وعندما التقى الأطفال في غرفتهم كانت تجتاحهم مشاعر التمرد على هذه القيود الجديدة التي لم يألفوها من قبل. وكان هناك إصرار بينهم على مواجهة هذا الموقف.

وقال روبي:

«ما الذي يدفعنا إلى البقاء هنا؟ كل تحركاتنا أصبحت مقيدة تماماً».

ورد ديفيد:

«اشعر بأنني أعيش في سجن كبير واسع. العم داروس يحاول فرض سيطرته الكاملة على كل تحركاتنا».

«علينا أن نتخذ قرارنا الليلة لنبلغه إلى خالتي بمجرد أن نستيقظ في الصباح».

«يبدو أن خالتي توني لا تستطيع هي ايضاً أن تجد مخرجاً لنا مما نحن فيه».

«علينا أن ندبر الامر حتى نحمل العم داروس إما على تغيير طريقته في معاملتنا أو إعادتنا الى بيتنا».

«لاحظت الليلة شيئاً هاماً للغاية... خالتي توني وقفت إلى جانبه وهو يروي لها الأسباب التي دفعته إلى معاقبتك».

«ربما تكون خائفة مثلنا. إنه رجل شرير متغطرس».

واعتدلت لويس وهي في فراشها:

«إنكما تفكران بطريقة كلها أنانية. كل همكما أن تتوافر لكما اسباب الراحة بدون ضابط أو أن تعودا إلى بيتنا لتضاعفا من المشقة التي تعاني منها والدتنا. فلتتدبر الأمر جيداً. لا بد أن يكون في إصرار خالتي توني على وجودنا معها هنا فائدة كبيرة».

«ربما... لكنها فائدة تحد من حركتنا وكيفية استمتاعنا باللعب... »

وقالت لويس في نبرة كلها استعطاف:

«قدمت والدتي لنا كل ما في طاقتها أثناء الدراسة... فلماذا لا نتيح لها الفرصة

كي تسترد أنفاسها؟ إن استمرار وجودنا هنا يسمح لها بالعلاج لاستعادة صحتها، وربما استطاعت بعد ذلك أن توفر لنا إمكانيات أكبر للعب واللهو».

ورد روبي قائلاً:

«أنا مصمم على العودة. جئت إلى بيت خالتي توني وكانت تحدوني الأمال في قضاء وقت كله لعب واستمتاع بالطبيعة. أما الآن فإنني أشعر أنني استأنفت دراستي مرة أخرى».

وأضاف ديفيد إلى كلام أخيه:

«العم داروس مصمم على أن نقرأ كل يوم إلى جانب اللعب».

وقالت لويس:

«خالتي تؤيده. لا بد أن يكون هناك وقت للاستمتاع باللعب واللهو، وآخر للقراءة والدرس».

وفجأة سمع الأطفال طرقاً على باب الغرفة، ثم انفتح الباب برفق. ودخل العم داروس:

«هل أشارككم هذا المؤتمر الصغير؟»

وصمت الجميع، لم يجرؤ أحد على الرد عليه، ربما احتجاجاً على مسلكه معهم، وربما خوفاً من عقوباته القاسية التي يمكن أن يفرضها بدون رأفة.

واستطرد قائلاً:

«أعرف جيداً أنكم تنتقدون مسلكي معكم، إنكم أيها الصغار لا تدركون بعد أنني لا أقصد أن أفرض عليكم قيوداً لمجرد الرغبة في مضايقتكم، كل ما في الأمر أنني أردت غرس نوع من السلوك المنتظم في نفوسكم يوفر لكم متعة حقيقية أثناء وقت فراغكم».

كان داروس يتحدث إليهم في عطف ومودة. لقد خلا حديثه تماماً من أي تهديد بعقاب أو أية أوامر صارمة.

«لا أشك أبداً في أنكم جميعاً تحبون والدتكم. إنها في حاجة الآن لأن تتفرغ لنفسها بعض الوقت حتى تستكمل علاجها. هل تبخلون عليها بهذه الفرصة؟»

ورد الجميع في صوت واحد:

«كلا... إننا ندعو لها بالشفاء».

وأحس داروس بأن هناك استجابة من الأطفال لهذه الطريقة من التفاهم:
«إذاً فلنتفق على أن نتعايش معاً، ولنخصص من يومنا وقتاً للاستمتاع باللهو، وآخر للاستفادة بالدراسة، وليحترم كل منا رغبات الآخر».

وكانت المفاجأة أن يدرك الأطفال الثلاثة حقائق الموقف بأسرع مما أدركته خالتهم توني، وتعاهد الجميع على تغيير سلوكهم. لا بد من معايشة العم داروس حسب التقاليد التي يعتقد أنها صائبة. أما العم داروس فلن يبخل عليهم مقابل ذلك بشيء... سوف تتوافر لهم كل وسائل اللهو!

وأحس الأطفال بعطف حقيقي من العم داروس، إنه ليس بهذه الدرجة من الشراسة التي بدت لهم في لقائهم الأول معه.

«طبتم مساء يا أعزائي، أرجو أن يظل هذا الاتفاق سراً بيننا وأرجو ألا يتردد أحد منكم في اللجوء إليّ إذا رغب في شيء».

كان هناك شيء غريب للغاية في الموقف كله، ومع مضي الأيام وجدت توني نفسها تنظر إلى زوجها في إطار جديد. وأدرك الأطفال أنه قادر على التصدي لشقاوتهم فاحترموه لذلك، وكان يطلب إليهم كل يوم أن ينجزوا كمية محددة من الدراسة في غرفة خصصها لهم، وإذا أخلّ أحدهم بما يطلب فلا بد أن يتوقع نوعاً من العقاب. والأغرب من ذلك أن كل طفل أصبح يتقاضى يومياً مصروفاً خاصاً به. وكانت مفاجأة لها أن يجيء إليها روبي ذات يوم حاملاً لعبة في يده. ولما سألته من أين حصلت على المال قال:

«أعطاني العم داروس ضعف مصروفي اليوم لأنني أنجزت كل عملي تماماً».

وفجأة دخل داروس فابتسم له روبي وسأله:

«هل تعجبك؟»

وأمسك داروس باللعبة وأخذ يفحصها، إلا أن عينيه كانت ترقبان توني، وسألها:

«لماذا تنظرين في دهشة هكذا؟»

«أنت... أنت تدفع مصروفاً يومياً للأطفال؟»

«إنه مصروف بسيط...»

«ولكن لماذا؟»

«ربما لأثبت لك أنني لست بخيلاً كما تعتقدين...»

وتذكرت توني المأساة التي تعيشها... إنها لا تستطيع أن تشتري لنفسها قطعة صابون. كانت تنتابها الحيرة والغيظ في فترات كثيرة: كيف تكون معدمة تماماً لا تملك درهماً واحداً بينما تزوجت واحداً من أغنى رجال الجزيرة؟

كان كل شيء مختلفاً عما خططت له وتمنت للحظة لو أنها بدأت بداية مختلفة. من يدري... لو أنها لم تظهر مثل هذا الجشع في البداية لكان زوجها أكثر تفهماً...

ونظرت إليه في شك وعادت تفكر: كان أمراً طبيعياً أن أجعله يدفع، ولا أزال أريد منه أن يدفع إذا وجدت طريقة مناسبة لذلك.

كان داروس ما زال ينظر إليها بابتسامة باهتة عندما أعاد إلى روبي سيارته اللعبة.

«العم داروس... وعدتني أن تأخذني أنا و ديفيد معك على الزورق...»

«نعم وعدتك».

«قلت بعد ظهر اليوم إذا كانت تصرفاتنا مناسبة».

«وهل تصرفتم بصورة طيبة اليوم؟»

«طبعاً... إنك تعرف هذا ولكنك تغيظنا فقط».

«حسناً... تعال، ستقوم برحلتنا البحرية الآن، أين ديفيد؟»

ونظرت توني إلى زوجها وهي تقول:

«إنك تتصرف بكياسة، ولا شك أنك ستجعلهم يأكلون من يديك قريباً».

ورد داروس بسرعة:

«وهو الأمر الذي يختلف تماماً مع ما كنت تخططين له».

«ستكسر شقاوتهم».

«ذلك أفضل بكثير من كسر أعناقهم!»

وضحك داروس لأنه أحس بالانتصار عليها، ودخل روبي.

«أخبرني ديفيد أنه سينزل في دقائق. هل تتجه إلى الزورق؟ سيعرف مكاننا...»

وسأل ديفيد:

«هل تستطيع خالتي توني أن تحضر معنا؟»

«خالتك تهتم بـ لويس ... وليس لديها وقت للنزهة البحرية».

كانت توني تسمع هذا الحوار وهي تختنق غضباً، كانت تتمنى لو أنها استطاعت أن تجد وسيلة تحطم بها سطوته وتعاليه.

ونزل ديفيد وسألها:

«أين روبي يا خالتي؟ العم داروس كان سيأخذنا معه في نزهة بحرية في الزورق... أعتقد أنهما ذهبا بدوني...»

«كلا... اتجها إلى الزورق في انتظارك».

«أشكرك».

وهم بالانصراف، لكنها سألته بسرعة:

«أصبحتما مولعين جداً بالعم داروس... ما الذي حدث أثناء اهتمامي بشقيقتك؟»

ورد عليها:

«كان العم داروس قاسياً للغاية في البداية... لكنني بعد أن بكيت وهو يصرخ فيّ... وبعد أن قلت له إنني أريد أمي التي تعيش بمفردها بعد وفاة والدي، أجلسني إلى جواره وجعلني أقول له كل شيء».

كان ديفيد ينظر في قلق إلى البوابة المؤدية إلى المرفأ الصغير وكان يخشى أن يتركاه وحده.

«لن يذهبا بدونك... ولكن ماذا تقصد بأنه جعلك تقول له كل شيء؟»

«كل شيء عن أمي... سألني عن كل شيء... وقلت له إنها تعمل عملاً شاقاً، وإننا لا نملك اموالاً كثيرة، وإنها تبكي في بعض الأحيان عندما تتذكر والدي. ثم سألني العم داروس إذا كنا أشقياء في بيتنا كما نحن هنا فأجبته بالايجاب. وسألني إذا كنت أشعر بالخجل من ذلك، فقلت إنني لا أعرف... فرد عليّ أنه ينبغي أن أشعر بالخجل. وقال إنه من الأفضل أن نبدأ جميعاً صفحة جديدة».

وتوقف ديفيد عن الحديث وهو يلتقط أنفاسه، وكانت عيناه ترقبان في قلق البوابة المؤدية الى الزورق.

«ثم قال إنه سيرعانا جميعاً، وإننا سنعود إلى بيتنا أفضل سلوكاً. هل أستطيع الذهاب الآن؟»

وردت قائلة:

«نعم... اذهب».

كانت توني ترقبه وهو يجري مسرعاً إلى البوابة، واتجهت في خطوات بطيئة إلى حمام السباحة حيث كان يمكن أن ترى من هناك الزورق. وسرعان ما استقلوا الزورق وبدأت ضحكاتهم تعلو، واستغرقت توني في تفكير حزين وهي ترى الزورق يبتعد في البحر، وتذكرت ما قالته جوليا عن شقيقها داروس: «إنه عطوف». ولكن أليس كل اليونانيين عطوفين على الأطفال؟ إن ما يفعله ليس شيئاً جديداً، إن أي رجل آخر كان يمكن أن يفعل ذلك في الظروف نفسها... وهذه التصرفات البسيطة يجب ألا تعميها عن جلد زوجها.

٥- شبح اوليفيا

ووصل جد داروس في شهر أغسطس (آب)، أي بعد أسبوع من الموعد المتوقع له، وأحست توني بالتأكيد أن توتراً سوف يخيم على علاقتها أثناء زيارته، لكنها دهشت عندما حيّاها الرجل بالروح الودية المعروفة عن اليونانين، وكأن المأساة التي شهدها لم تحدث ابداً.

ومع مضي الوقت انصاع الأطفال تماماً للطريقة التي يعاملهم بها داروس، ولم تستطع توني أن تخفي إعجابها بأسلوب داروس في معاملة الأطفال، كان صارماً معهم، لكنه أثبت ايضاً أنه متفهم وأدرك أن الصغار يتسمون بالظرف اساساً وليس في أعمالهم أي سوء حقيقي.

والواقع أن استفساره من ديفيد أوضح له الصورة تماماً بالنسبة الى ما حدث منذ موت أبيهم. كانت الأم تعمل والأطفال يجمحون بلا سيطرة. وكان واضحاً أنها أفسدتهم بالتدليل لأنها شعرت أنهم يعانون الحزن بعد موت أبيهم. لم تكن صورة جديدة بأي حال ولكن توني ظلت مندهشة لأن داروس لم يبخل بالجهد أو الوقت لأصلاح سلوكهم.

وفي هذه الاثناء كانت لويس قد شفيت تماماً وتركت فراشها، واصطحبتها توني الى الشاطىء الذي يملكه داروس حيث كان الصبيان يلعبان الكرة. أما جدّ داروس فكان يجلس على أريكة يرقبهما، وابتسم عندما شاهد توني ولويس تقتربان منه.

وقال:

«ابنة أختك أصبحت أفضل الآن...»

وأومأت توني برأسها. وابتسمت للرجل المسن وأدهشها أنها لم تكنْ له في

نفسها أية ضغينة. إن عزمه على تنفيذ الانتقام كان بالنسبة اليه هو الاجراء المناسب والسليم، ولم تجد توني صعوبة في الصفح عنه، بعدما أصبحت بمنأى عن الخطر، إلا أنها لم تصفح عن داروس، ومازالت تأمل أن يأتي الوقت الذي تتاح لها الفرصة لتعاتبه على ملاحظاته عن الفتيات الانكليزيات.

وجاءت الفرصة أسرع مما توقعت، أو هكذا تصورت. كان داروس سيستضيف بعض زملائه من رجال الأعمال وزوجاتهم في الأسبوع التالي، وطلبت توني منه بعض المال لتشتري فستاناً وتصفف شعرها، وكان رده عليها:

«استخدمي بعضاً من مخصصاتك.»

. قال ذلك بحزم وكأنه لا يريد مزيداً من النقاش.

وراحت توني تفكر في الأمر وهي جالسة مع الرجل المسن، وراودتها فكرة إحراج داروس عندما جاء إلى الشاطىء. كان يرتدي سروالاً قصيراً وقد بدت عضلاته صلبة قوية.ونظر الى لويس وهي تلعب الكرة مع شقيقيها ثم التفت الى توني وقال وقد عبس وجهه:

«إن ما تفعله لويس يفوق طاقتها...لماذا تتركينها هكذا تستنفد طاقتها الضئيلة بعد مرضها؟»

وردت توني في صوت خفيض:

«إنها ابنة أختي وأنا أعرف ما يصلح لها.»

وشعرت توني بالخجل بعدما لاحظت أن الجد ينظر اليها في دهشة، ووجه حديثه إلى حفيده قائلا باليونانية:

«هل تسمح لزوجتك ان تتحدث اليك بهذا الاسلوب؟»

«لم أخضع روحها الانكليزية بعد، ولكنني سوف أفعل ذلك.»

وكادت توني تنفجر غيظاً وهي تسمع ذلك، لكنها ظلتْ صامتة حتى تخفي معرفتها باللغة اليونانية. سأله الجد قائلا:

«ألم تتعلم درساً من الانكليزية الأخرى يا داروس؟ هل تعرف زوجتك أنك كنت ترتبط بخطبة مع أوليفيا؟»

وأجاب داروس في اقتضاب:

«ولم أجد سببا أذكر لها ذلك.»

«وأتعجب في بعض الأحيان لما تزوجت هذه المرأة؟ والدتك قالت أنك أحببتها، إما أنك تزوجتها لانتقامك مني أو نكاية في أوليفيا.»

ولم يعلق حفيده بكلمة فاستطرد قائلا:

«كان زواجا مفاجئاً يا داروس.»

ونظر ناحية توني، ثم نقل نظره إلى لويس محاولا إقناعها بعدم الاستمرار في اللعب. وأمسك بيدها.

وسمعتها توني تحتج وتقول:

«لكنني أريد أن ألعب معك.»

ولكن أخاها ديفيد نصحها محذرا:

«من الأفضل أن تسمعي ما يقوله العم داروس.»

ولم تكن لويس قد خضعت لتأثير عمها الصارم.

وحاولت التملص من يده لكنه حملها بشيء من العنف واتجه بها إلى المقعد الخالي بجوار خالتها واغتاظت توني وقالت غاضبة:

«اتركها وشأنها.»

«إما أن تجلس في هدوء هنا على الكرسي أو أن تعود إلى المنزل.»

«لن ابقى على هذا الكرسي، ولن أعود الى المنزل.»

«سوف تبقين في مكانك يا فتاتي الصغيرة. ولم يكن من حق خالتك أن تسمح لك باللعب مع ديفيد وروبي.»

كان صوته صارماً ولكنه كان هادئاً لطيفاً وتطلعت اليه وقد بدا في عينيها لمحة من الاحترام له.

وسألت خالتها.

«هل ينبغي أن ابقى هنا؟»

يا له من وضع حرج. وقالت توني وهي تتميز غضباً:

«نعم يجب أن تجلس لويس في هدوء على الكرسي.»

ووقف داروس ينظر الى توني وقد بدت السخرية في عينيه. ثم استدار واتجه إلى الولدين وعندما شاهداه، هللا فرحاً لأنه سيشاركهما في اللعبة.

وأخذت توني تراقبهم وقد انتابها شعور بالحنين المتدفق. لم تكن قد حسدت أماً على أطفالها. كانت تستمتع بحياتها وحريتها. وكان الزواج في نظرها حالة غامضة ولن تفكر فيه إلا بعد أن يمضي شبابها. لكنها الآن شعرت بإحساس غريب من الفراغ كأنها تهيم على وجهها بدون مرفأ.

وبصورة آلية تطلعت إلى البيت الأبيض عند سفح التل..إنه البيت الذي تعرف بالتأكيد أن داروس يمتلكه. تذكر أن تشاريتوس ليونيتي يقيم هناك مع والدته. توني قد قابلته ذات يوم، عندما كانت تسير على سفح التل عائدة من ليندروس حيث كانت تتسوق بعض حاجياتها، وعرض عليها أن يصطحبها في سيارته إلى منزلها وقدم نفسه إليها. ودعاها إلى زيارته وأمه في اليوم التالي. لقد حدث ذلك قبل وصول الأطفال الثلاثة. وقبلت توني الدعوة وزارتهما في مناسبات عديدة تشاريتوس وسيم وأعزب. وهو لاشك مفتون بشخصية توني. ولم يمنعه زواجها من أن يبدي إعجابه بها. وتوني تعرف أن كل اليونانيين مغرمون بتملق النساء. لكنها كانت تحس أيضا أن تشاريتوس صادق في إعجابه. تقدم اليها الكثيرون في حياتها للزواج منها. لكنها لم تكن تحس بأي شعور نحوهم. إلى أن قابلت تشاريتوس. أحبته وكانت تفكر فيه كلما قابلته. وطوال فترة وجود الأطفال معها لم تستطع توني أن تزوره هو وأمه. لا بد أنه تساءل ما الذي حدث!وقررت أن تتصل به هاتفياً.

وفجأة سرحت توني بخواطرها وتذكرت تلك المحادثة القصيرة بين داروس وجده منذ لحظات. وأخذت تفكر في أوليفيا. من هي وكم من الوقت استمرت خطبتها قبل أن يقررا الانفصال؟ لا بد أنها خذلته بطريقة جعلته يحتقر كل الانكليزيات ويتمنى لو أنه تزوج من فتاة يونانية تعرف مكانها تماماً كامرأة. وعندما وصلت توني بأفكارها إلى تلك النقطة تساءلت: ترى ماذا سيكون رد فعل شقيقتيه عندما تعلمان بنبأ إلغاء الزواج الحالي؟ الطلاق يزعج توني. وعندمايلغى الزواج لن تشعر إلاّ بالارتياح.

وعاد داروس والطفلان من الشاطىء. وأفسحت توني مكاناً لداروس بجوارها فشكرها وهو يقول:

«الأفضل أن تدخل لويس بعد دقائق إلى المنزل. حرارة الشمس أصبحت أشد

من طاقتها على الاحتمال.

وأشاحت توني بوجهها، وفكرت، لو أنه فقط حدّ من سلوكه المسيطر المتعالي لاستطاعت أن تحتفظ بهدوئها. إن أي شخص يراه يعتقد أنه والد هؤلاء الصغار!

وجلس الطفلان على الرمال بينما أجلست توني بنت أختها لويس على ركبتيها وبدأت بناء على رغبة الطفلين تحكي قصة خيالية عن رودوس وهي تدرك أن الجميع ومن بينهم داروس وجده يصغون إليها في اهتمام.

وبعد أن فرغت توني من روايتها قال داروس إن اسم الجزيرة اليوناني رودوس يرتبط باسم بطل القصة. وأكمل داروس بعض جوانب القصة. وكان حديثه رقيقاً لطيفاً بل كان نفسه يشعر بالبهجة والمرح مثل الأطفال. واجتاح توني شعور غريب. لقد بدا شخصاً مختلفاً تماماً وهو يحدث الأطفال وفكرت توني. إنه أب رائع رغم أنه زوج متسلط

كان حفل العشاء المزمع إقامته لزملائه من رجال الأعمال وزوجاتهم سيتخذ شكل حفل رسمي.. وقبل أيام من موعده جلست توني تتصوّر كيف سيكون الموقف أثناء الحفل. زوجها سيكون واقفاً هناك يحدق في ذهول إلى مظهر زوجته أمام ضيوفه الأثرياء وزوجاتهم. وهي ترتدي فستاناً قديماً وتترك شعرها بلا تصفيف. وعندما يبدي داروس أية ملاحظة عن زيها أو شعرها... ستوجه اليه الاتهام وتقول بصوت مسموع للجميع:

«لا بأس يا داروس... هذا كل ما عندي، لانك لم تعطني مالاً حتى لتصفيف شعري.»

كان الثوب يخص امها وكانت توني قد أخذته لتفصل منه تنورة ذات يوم. لكنه ظل مطوياً في حقيبتها.. ولو أنها أرادت أن تزيل تجاعيده لوجدت هذا مستحيلاً. في أي حال لم تكن تريد أن تزيل التجاعيد. وتطلعت إلى نفسها في المرآة وهي ترتدي الثوب. كان منظرها قبيحا... وخطر لها أن تغيّره بثوب آخر يليق بالمناسبة لكنها صرفت الفكرة. وكانت تريد أن تضع زوجها في وضع حرج!

لكن داروس استطاع أيضاً هذه المرة أن يحبط محاولتها. فقبل نصف ساعة من موعد الحفل سمعت طرقاً على باب غرفتها. وسألها إن كانت قد ارتدت ملابسها.

ووضعت توني عباءة فوق فستانها وفتحت الباب:

«هل هناك شيء؟»

«هناك خطأ في ثنية كم القميص ولا أستطيع تثبيتها»

وتمكنت توني من تثبيت ثنية الكم والأزرار الذهبية المحلاة بالماس.

كان داروس يفحص توني بنظراته طوال الوقت، وفجأة وقع بصره على فستانها الأحمر القديم.

«أليس عندك غير هذا ؟»

«هذا هو أفضل ماعندي...»

-ووقف يحدق فيها بدون أن ينطق بكلمة.

«ماذا تقصدين؟ هذا غير مناسب»

واتجه بخطى سريعة إلى خزانة ملابسها ليجد مجموعة من الفساتين فاختار واحداً منها ووضعه على السرير وقال لها في عنف:

«ارتدي هذا الفستان. وحاولي أن تصففي شعرك بطريقة مناسبة. إنك تبدين كبائعة السمك...»

وردت توني في حنق وعيناها الخضراوان مليئتان بالكراهية:

«لن أصفف شعري ولن أغير ردائي»

«سوف تفعلين ما اطلب»

واتجه اليها ونزع العباءة بعنف.

«هل تخلعين الرداء فوراً أو أفعل أنا ذلك؟»

«لن احضر الحفل، ويمكنك أن تعتذر لهم، قل إنني مريضة أو أي شيء آخر»

«لديك عشرون دقيقة. اجعلي مظهرك مناسباً خلالها وإلا ستتحملين كل النتائج»

«لا أستطيع أن أفعل شيئاً بالنسبة الى شعري»

«استدعي ماريا كانت دائما تصفف شعر جوليا»

واتجه داروس الى باب الغرفة، واستدار قائلاً:

«انزلي خلال عشرين دقيقة. واعتني بمظهرك الذي يجب أن يكون مناسباً لزوجة رجل مثلي»

«كيف افعل ذلك في عشرين دقيقة فقط؟»

وهددها قائلاً:

«إذا امتنعت عن تنفيذ ما أطلب سوف تدفعين الثمن.»

وتركها واقفة هناك وهي ترتجف من كل قلبها لو انها لم تفكر في هذه المحاولة.

وبعد مضي عشرين دقيقة كانت توني تقف في القاعة، وكان داروس يقدمها الى ضيوفه من اليونانيين الأثرياء وزوجاتهم اللواتي حصلن، مثل أم داروس، على حصة من التحرر من دون الوصول إلى وضع المساواة الذي تتمتع به نساء الغرب.

وسمعت توني أحد اليونانيين يقول لداروس:

«زوجتك فاتنة!»

«وجميلة جداً!»

قالها آخر وهو يرمق كل جزء في جسم توني بهذا النوع من التعالي المتغطرس الذي يتصف به كل الرجال اليونانيين.

ورد داروس:

«أشكرك يا باقلوس...»

واعقب تعليق داروس الرقيق بنظرة متكبرة الى زوجته. واحمر وجهها وهو يحدق فيها. اذ أدركت مدى سعادته لأنه استطاع أن يسيطر عليها. لكنه بدا حائراً أيضاً. وخطر لها فجأة أنه لا بد أن يكون مرتبكاً بالطبع ولا بد أنه يتساءل عن سبب محاولاتها المستمرة لازعاجه... في يوم ما... ربما عندما يستعدان لالغاء الزواج ستوضح له الأمر سوف يتلقى صدمة كبيرة عندما يعرف أنها فهمت لعبته.لا شك أن هذا سيحرجه، ولكن كيف يشعر امثاله بالحرج؟ إنه شخص يتلوه بهذا الاحساس البغيض بأهميته وتفوقه وسيطرته لا يمكن أن يحرجه شيء!

كان الضيوف يتناولون شرابهم، وعندما كانت توني تنظر حولها، لاحظت أن إحدى السيدات الجميلات تحدق فيها. إنها ايفيانيا لاميدس زوجة صاحب الفندق الثري الذي كان يقف بالقرب من النافذة يتناقش مع مضيفه. وظلت المرأة ترمق توني بعينيها من رأسها الى قدميها. وقالت توني لنفسها: من تكون هذه السيدة غير المهذبة. وبعد دقائق وجدت توني نفسها تقف خلف ايفيانيا التي كانت تتحدث إلى داروس باليونانية.

«اوليفيا تعتقد تماماً أنك تزوجت هذه السيدة للضرورة البحتة وليس لشيء آخر»

«حقاً ولكن ما الذي يهم أ أوليفيا من زواجي؟»

«تذكر انكما كنتما مخطوبين...»

«ايفيانيا ، الأفضل أن تنسي هذا الموضوع. باعتبار أن أوليفيا واحدة من أفضل صديقاتك.»

«فعلا وهي تأسف لما بدر منها بالنسبة اليك. هل تزوجت توني للضرورة؟»

فأجاب بحدة:

«للضرورة؟»

«سمعت اوليفيا إشاعة غريبة يا داروس، إنها تقول إن جدك كان يعتزم قتل هذه الفتاة للأخذ بالثأر»

«إنه كلام فارغ... تزوجت توني لأنني أردتها زوجة لي...»

ولم يعقب داروس على ذلك... ولكنها مضت قائلة:

«إنك لن تنسى اوليفيا ابداً... فهي تفوق هذه المرأة جمالا وجاذبية.»

«ايفيانيا. لا أحب أن أكون وقحاً مع ضيوفي. أطلب منك أن تنسي هذا الموضوع.»

واستدار داروس فالتقت عيناه بعيني توني التي اضطرت إلى رسم ابتسامة على شفتيها برغم أنها كانت تحترق في داخلها.

إذا هذه اوليفيا تفوقني جمالاً وجاذبية! ورد زوجها على ابتسامتها فتناول كأسها الفارغة وسألها برقة: هل تريدين كأساً أخرى يا عزيزتي؟ وقالت توني وقد فترت ابتسامتها: كلا، شكراً. وابتعد عنها.

وتحولت المرأة الى توني قائلة:

«ألا تتحدثين اليونانية؟»

«أعرف بعض الكلمات.»

«أعتقد أن ما تعرفينه هو كيف تقولين«من فضلك» و«أشكرك».»

«نعم أعرف هذين التعبيرين باليونانية.»

«ليس المهم أن تعرفي كيف تتحدثين لغتنا... معظمنا يتحدث الانكليزية هذه الايام.»

«إنها ميزة أن يتعلم المرء لغة أخرى. في هذه الحالة سيعرف أن ليس هناك من

يتحدث عنه بدون أن يعرف ما يقال.»

وبدا الحرج على المرأة وقالت:

«آمل ألا تتصورين أنني وداروس كنا نتحدث عنك الآن!»

«ولماذا أتصور ذلك يا سيدة لاميدس...»

ونظرت ايفيانيا نظرة غريبة إلى توني بينما ظهر داروس قربها. ولاحظ التعبير في عينيها. وسألها قائلا:

«هل هناك شيء غير عادي؟»

«أعتقد ان زوجتك تصرّ أننا كنا نتحدث عنها...»

كانت كلماتها تحدياً لتوني وشعرت توني بالندم لأنها تهورت وجعلت الحديث يتحول على هذا النحو الخطر ولكنها ردت بسرعة قائلة:

«السيدة لاميدس تتخيّل أشياء لم تحدث.»

«أشعر بالاهتمام لما يدور بينكما...أرجوك أن تفسر لي إحداكما الموقف؟»

«كانت زوجتك تقول إنها خسارة كبيرة ألا يفهم المرء لغتنا. والمحت إلي أن كلاماً كثيراً قد يقال عن شخص بدون أن يعرف ما يقال عنه...»

ولم يثر هذا الموقف مرة أخرى. لكن توني أحست بشيء من القلق اثناء الحفل.فقد لاحظت أكثر من مرة أن زوجها يرمقها بنظرة عندما يقال شيء باللغة اليونانية. والتزمت توني كل الحرص حتى لا يكتشف احد أنها تعرف اليونانية وعاهدت نفسها بأن تتخذ الحيطة في المستقبل.

وأخيراً غادر المنزل وأصبحت توني بمفردها مع داروس .

«كنت حكيمة عندما استمعت الى التحذير الذي وجهته إليك. أرجو أن تكوني قد استوعبت هذا الدرس.»

ولمعت عيناها غضباً:

«هل هناك ما يدعو الى التعقيب على استجابتي لمشاعرك.»

«استجابة..إنك تقصدين استسلامك لما أريد.»

«إذا كان يرضي غرورك ان تسميها هكذا. فلا تجعلني إذن أحطم أوهامك.»

«إذا كان هناك اي شخص يعيش في وهم فهو انت بلا شك. إنك الآن تعرفين أنه يجب ألا تثيريني، مازلت تحيدين عن الطريق فتجعلي من نفسك مصدراً

للمضايقة ولقد فشلت تماماً في فهم ذلك، ولكن لا بد أن يكون هناك سبب.»

وقالت لنفسها:

وهناك أسباب فعلاً وسيعرفها يوماً ما.

«انا ذاهبة لأنام...»

وخرجت من الغرفة.

وبعد دقائق سمعت توني خطوات داروس، وعندما ألقت نظرة تلقائية عابرة إلى باب غرفتها غير المغلق تذكرت أوليفيا وتساءلت عن مدى جمالها. وما الذي فعلته حتى تتسبب في فك ارتباطها بداروس. ورغم كل ذلك فإن داروس كما قالت ايفيانيا لا يستطيع أن ينساها...اوليفيا آسفة لمقاطعته مع داروس.ولذلك فربما تنسى هي وداروس خلافاتهما عندما يسترد داروس حريته.

واستلقت توني في نهاية الأمر على سريرها. إلا أن أفكارها عن جمال أوليفيا المجهول لم تنقطع. اوليفيا يسعدها بلا شك وتأمل أن تدخل في منافسة مع توني، إذا كان داروس مستعداً للصفح عن أي خطأ ارتكبته خطيبته السابقة في حقه...منافسة.إنها لتدهش كيف تسللت هذه الكلمة إلى أفكارها. لا يمكن أن تكون هناك منافسة بينها وبين اوليفيا. فلتأخذ اوليفيا هذا الأجنبي المتغطرس المتسلط مع أطيب التمنيات بحظ سعيدا

شعرت توني بإحساس مثير يتغلغل إلى نفسها، ولكنها لا تستطيع تحديده. إحساس جعلها تظل ساهرة طوال الليل. وكانت آخر أفكارها تدور حول تشاريتوس ليونيتي الذي اتفقت معه في آخر مكالمة على لقاء قريب. كانت توني ترغب في اصطحاب الأطفال معها، ولكنه أقنعها بالعدول عن ذلك.

واتفق الاثنان على التوجه إلى رودوس، ثم يتناولان الغداء، وتشتري هي بعض احتياجاتها إذا شاءت. ثم يصحبها في جولة الى المدينة.

وفكرت توني . كيف تشتري أشياء وهي لا تمتلك درخما واحدة.

«لن أضيّع الوقت في الشراء يا ليونيتي...أفضّل القيام بجولة سياحية.»

وهكذا تم ترتيب هذا اللقاء. وان كانت توني أحست ببعض الذنب لأنها ستترك الأطفال. لكنها كانت تتطلع إلى قضية وقت طيب بصحبة تشاريتوس.

٦ ـ الخاتم والشيك

وبعد أن تناولا الغداء في فندق «غراند هوتيل» قاما بجولة في المدينة القديمة بأسوارها التي بناها الفرسان الصليبيون، ومعمارها التركي الغريب حيث توجد في البيوت ما يشبه المشربيات الخاصة بالنساء، وهذه تبدو كأنها تمد البصر في فضول إلى الأزقة الممتدة تحتها.

وعندما دخلا عبر بوابة البحر الضخمة كان التغيير المفاجئ في المشهد يذكر بتغيير المشاهد في التمثيل المسرحي الصامت. فعلى مدى خطوات فقط اختفى الغرب وظهرت مدينة شرقية امامهما.

وقالت «توني» في دهشة واستغراب:

«انه شيء خلاب، كلّ شيء يتسم بالسلام، كلها من العصور الوسطى... المساجد... والمنائر».

وضحك «تشاريتوس» من طريقة وصفها وتأبط ذراعها وأضاف:

«هناك أيضاً الأشجار والأزقة الضيقة والبيوت ذات القناطر التي تبدو متساندة الى بعضها البعض».

«والاحساس بالعزلة... والخوف...»

«التأثيرات القديمة ما زالت باقية. كان على «اليونانيين» لفترة طويلة أن يبقوا خارج المدينة القديمة في الساعة الثامنة مساء كل يوم».

«هل كانوا يخشون «الأتراك»؟»

وقال وهو يضحك:

«كلا، كان «الأتراك» هم الذين يخشونهم. كنا دائماً عطوفين كرماء كما نحن الآن...»

عطوفون وكرماء؟

هذه الأوصاف لا تنطبق على يوناني معيّن... أو ربما يكون ورث بعض عاداته السيئة من والده «الانكليزي»، ولكن ذلك مستحيل. فالانكليز ليسوا كذلك على الاطلاق، قررت هذا وهي تشعر بالولاء لشعبها.

وسألها «تشاريتوس» بعد لحظة:

«ما رأيك في بعض الشراب؟ هذه الشمس تجعل المرء يشعر بالعطش». وجلس الاثنان قرب مسجد تحت ظل شجرة ضخمة. كانت «توني» تشعر بالسعادة. إنها أول رحلة لها بعيداً عن مدينة «ليندروس» وكانت تستمتع بالرحلة تماماً.

وسألها وهو ينظر إليها في إعجاب:

«ماذا يسمح لك زوجك بالخروج هكذا؟»

«وهل يقدور زوجي أن يمنعني؟»

«لو كنت زوجي لمنعتك».

«كنت أعصاك»

«وهل هذا هو ما تفعلينه الآن؟ تتحدين زوجك؟»

«إنه لا يعرف أنني خرجت من البيت»

«ألم تقولي له الى أين أنت ذاهبة؟»

«لم يكن موجوداً... ولذلك لم أذكر شيئاً».

وضحك الاثنان وتطلعت إليه «توني»: كان وسيماً، فمه ممتلىء الشفتين وعيناه أقل قتامة من عيني الرجل «اليوناني» العادي. وسألها:

«ولكن لنفرض أنه كان موجوداً، هل كنت ستقولين له إنك خارجة للقائي؟»

وصمتت لحظة وهي تفكر ثم قالت:

«كلا. لا أعتقد».

واقترب منها بمقعده وهو يقول:

«إنك تحيريني يا «توني». منذ متى تزوجتما؟»

«نحو عشرة أسابيع. ولا تمانعين في الخروج مع رجل آخر. إنني أعرف أن المرأة الانكليزية حرة، ولكن ألا تحبين زوجك؟»

ونظرت إليه في تأمل وقالت أخيراً:

«ماذا قلت إنني أحبه... هل تصدقني؟»

«بصراحة لا... لم تعطني انطباعاً بأنك عروس انكليزية حديثة الزواج، الفتيات اليونانيات لا يظهرن هكذا بعيون متألقة بعد الزواج».

«لأنهن بطبيعة الحال لا يتزوجن من أجل الحب».

«بالضبط.. يتزوجن لأن آباءهن ينصحونهن بذلك...»

«وبعد أن يقرر الأبوان اختيار زوج معين لا بنتهما...»

«عادة... ولكن أنت يا توني... لماذا لا تحبينه؟»

«لم أعترف بأنني لا أحبه».

«أوه... نعم... اعترفت... ردي على سؤالي... توني انه من المهم جداً أن أعرف الكثير عنك...»

وأحست توني برعشة في جسمها. هل تثق به؟ إنها متأكدة أنه شخص يمكن الوثوق به. نظرة واحدة إلى عينيه أوحت إليها بذلك.

«كان زواجنا ضرورة بحتة، إن أحداً منا لا يحب الآخر».

«ضرورة؟»

وترددت توني بعض الشيء ثم انطلقت قائلة:

«جد داروس كان يعتزم قتلي...»

«يقتلك؟»

«إنه الأخذ بالثأر... لقد عشت في كريت فترة...»

وبدأت توني تسرد له تطورات القصة كلها، وكانت تلحظ التغييرات المختلفة التي تبدو على وجهه. وأخيراً قالت إنه لا بد من فسخ هذه الزيجة في نهاية الأمر.

«وهكذا ستصبحين حرة في الوقت المناسب؟»

وأومأت قائلة:

«نعم يا تشاريتوس، في يوم ما سأكون حرة».

وابتسمت لصاحب المقهى وهو يحضر المشروبات إلى المائدة فابتسم أيضاً وقال:

«هل أنت سائحة يا سيدتي؟»

«كلا، أنا أقيم هنا».

«في رودوس؟»

«لا في ليندوس».

«إنها مدينة جميلة حقاً».

«نعم، إنها جميلة جداً».

وابتسم الرجل مرة أخرى وانتقل إلى مائدة أخرى مجاورة.

وسادت فترة صمت بين توني وتشاريتوس وهما يحتسيان الشراب وكانت توني تتطلع إلى الرجال يدخلون المسجد يخلعون أحذيتهم عند الباب. وعلى الجانب الآخر من المكان كان هناك باب مفتوح ترى منه أرضاً مغطاة بفسيفساء من الحصى البيضاء والسوداء مرسومة على نمط قديم وقربها بيت صغير تنبعث منه أصوات الموسيقى وروائح طعام شهية. وكان السواح يتهافتون عليه ينصتون الى الموسيقى ويستمتعون بالطعام.

وتنهدت توني في ارتياح. إنها في رودوس التي لم تشهدها من قبل، ولولا تشاريتوس لما رأتها، فالرحلة طويلة ولا تقدر على تحمل نفقاتها بمفردها. والتفكير في المال أعاد الى ذاكرتها الأطفال الثلاثة.. كانت تود لو تمكنت من شراء بعض الهدايا لهم.

سألها تشاريتوس أخيراً:

«هل نبدأ العودة؟»

وأومأت توني برأسها. وقطعا بعض الخطوات براً على الأقدام وهي تتطلع إلى معالم المدينة القديمة، وانتهى بهما المكان إلى شارع الفرسان. كان السواح هناك بالمئات يتجولون في الأحياء الضيقة في صحبة المرشدين. وكانت توني تحس بروعة المكان الذي تسير فيه. تجتاحها الرغبة في دخول بعض منازل الفرسان والتحدث إلى سكانها الجدد... وقالت:

«أريد أن أدخل أحد هذه المنازل الرائعة. وحدق فيها رفيقها وقال:

«تدخلين؟ إن فيها سكانها».

«سوف يرحب السكان بدخولك».

وأمضى الاثنان وقتاً ممتعاً. وفجأة اقترب منها تشاريتوس وطبع قبلة على وجهها. وبادرته بقولها:

«تشاريتوس، لم يكن مناسباً أن تفعل ذلك. إنني متزوجة».

«إنكما متزوجان بالاسم فقط وكلاكما يعتزم فسخ الزواج بمجرد توافر الفرصة، يا عزيزتي. إنك لست متزوجة».

«تشاريتوس! أشعر بالخجل... ترى لماذا؟»

«لا داعي لشعورك بالخجل يا عزيزتي، إنك حرة تماماً».

«ولكنني لست كذلك يا تشاريتوس».

«هل كانت غلطتك أن تتزوجي؟ هل أحد منكما لديه النية في أن يستمر الزواج؟ إن ما ذكرته لي يا توني يبين أن داروس لا يكنّ حتى الاحترام لك».

«هل أعطيتك هذا الانطباع؟ لم أقصد ذلك».

أحست توني بالخجل. بل شعرت بعدم الولاء لداروس. ولكن أي ولاء تدين به لداروس؟

«توني يا عزيزتي، إنني أحبك، وأشعر بالتفاؤل بالنسبة الى عواطفك نحوي. لكن علينا الانتظار... رغم أنه سيكون صعباً بالنسبة اليّ ... انا مستسلم تماماً، ولن أضايقك أبداً. فقط دعينا نلتقي من حين الى آخر.

«علينا أن نذهب الآن. العجوز التي تقف هناك سوف تشك فيما نفعل».

كانت توني تشعر بأحاسيس غريبة رغم أنها كانت تود لو أن صداقتها مع تشاريتوس قد نمت، وتطورت إلى علاقة حب. كانت تشعر أنها لا تحب داروس، وأنه لا يحبها، ولم يكن هناك أي شك في أن زواجها سوف ينتهي. إنه زواج مؤقت لن يدوم. وأحس تشاريتوس بالأفكار التي تراودها وقالت:

«لا أعرف ماذا أصابني».

وأخذ تشاريتوس يدها بين يديه وقال برقة:

«يبدو أنك تشعرين بوخز الضمير يا عزيزتي، إنني لا أعرف لماذا، وفي إية حال إنه أمر تستحقين الثناء عليه. لكنك لو فكرت جيداً لن تجدي مبرراً لاحساسك بالذنب. إنك حرة يا عزيزتي، حرة، ألا تفهمين؟»

وصلا إلى المكان الذي توقفت فيه المرأة العجوز، فابتسمت لهما وسارا في

طريقهما ويداهما لا تزالان متشابكتين. وأخيراً قالت توني:

«تشاريتوس، أشعر أنني سخيفة معك، ولكن أعطني فرصة».

«بالطبع أمامك وقت كاف يا عزيزتي، كل شيء سيسير على ما يرام في النهاية، فلننس كل شيء الآن ولنتمتع أنفسنا».

وسار الاثنان على طول المتنزه في المدينة الجديدة وهي أيضاً ميناء ماندراكي، كانت طواحين الهواء الجميلة الخلابة تدور في بطء. وتقول الأساطير إنه في مكان ما من هذه المدينة كان يوجد تمثال رودوس الضخم، وهو أحد العجائب السبع في العالم القديم، وفي الميناء كانت زوارق عديدة تجوب المياه وترفع أعلاماً لدول مختلفة. إنها زوارق خاصة يملكها بعض أغنى أثرياء العالم.

وسألها تشاريتوس عندما اقتربا من مقعد تحت مجموعة من الأشجار الظليلة:

«هل ترغبين في الجلوس هنا بعض الوقت؟»

«ما الذي تريده يا تشاريتوس؟»

«هل تهتمين بي يا توني؟»

ونظرت بعيداً إلى أشجار النخيل الباسقة وقالت:

«لا أعرف يا تشاريتوس، حقيقة لا أعرف».

«لو أنك لا تحبينني بقدر ضئيل لرفضت الخروج معي».

«إنني أحبك كثيراً».

وبدا أنه قانع تماماً بهذا.

«اذن دعي الأمور تسير بصورة عادية».

«إنك عطوف معي يا تشاريتوس».

وبعد لحظة قال:

«تعالي... سوف أشترى لك هدية».

وعندما كانا يتجولان للتسوق من المتاجر ـ أحست توني أن ما تبقى لديها من اكتئاب قد تلاشى، وشعرت بالبهجة مرة أخرى. وعندما سألها عما تحتاج شراءه، قالت:

«بعضاً من أدوات التجميل التي أفضلها يا تشاريتوس».

«سأحضر لك ما تطلبين».

طلبت توني ما أحست أنه ضروري بالنسبة اليها، لكنها تترك الآن أن أدوات التجميل هي من ضمن الأشياء التي يتعين أن تشتريها بنفسها لو توافرت لديها النقود. هل يشك الآن تشاريتوس في أنها لا تملك نقوداً. كانت تتمنى لو أنها تراجعت عما طلبت. وعندما اشترى لها ما أرادت، قال إنه يعتزم شراء هدية لوالدته بمناسبة عيد ميلادها.

«انها تعشق الخواتم، ولذلك فسوف نتجه إلى تجار المجوهرات. أرجو معاونتي في الاختيار».

وأثناء فحصها الخواتم المعروضة في محل المجوهرات وضعت يدها بدون أن تشعر على خاتمها الذهبي المطعم بماسة جميلة تحيط بها أحجار الياقوت، والذي كانت ورثته عن جدتها.

أثار هذا الخاتم إعجاب الجوهرجي ومساعده. وسألها صاحب المتجر إن كانت ترغب في بيعه.

«بالتأكيد لا».

وأمسك تشاريتوس أحد الخواتم وسألها:

«ما رأيك في هذا؟»

«بالنسبة اليّ أفضل هذا الخاتم، ولكنك تعرف اكثر مني ما تحبه والدتك».

وأمسكت توني بخاتم آخر وأخذت تفحصه، وكان صاحب المتجر ما زال ينظر إلى أصبعها.

«سيدتي... سوف أدفع لك مبلغاً مناسباً».

ورد تشاريتوس في حزم:

«إنها لا ترغب في بيعه».

«ورثته عن جدتي... كان خاتم خطبتها».

«لديّ زبونة، سيدة أمريكية، تريد هذا الخاتم بالذات، وسوف تدفع لك ثمناً كبيراً له...»

ورد تشاريتوس في غيظ هذه المرة:

«إنها لا تريد بيعه... جئنا إلى هذا المتجر لنشتري وليس لنبيع».

ورغم ذلك عرض الجوهرجي ثمناً مرتفعاً جداً أدهش توني. وقالت:

«لكنه لا يساوي كل هذا المبلغ».

«أعرف ذلك. ولكن السيدة الأمريكية تجمع الخواتم من هذا الطراز إنه نوع من الهوس. إنها أرملة لديها أموال لا تعقل».

ونظر إليها تشاريتوس.

«هل تفكرين فيما عرضه عليك؟»

وهزت رأسها بطريقة تنم عن الحيرة. الأموال التي ستأخذها يمكن أن تغطي كل ما عليها من ديون لبارويس، وتمكنها من دفع نفقات السفر بالطائرة لاعادة الأطفال إلى بلدهم، ويمكن أن يتبقى لها بعض المال لشراء هدايا لهم ولشقيقتها.

وأخيراً قالت في حزم:

«كلا... لا أستطيع بيع هذا الخاتم».

ورفع الجوهرجي الثمن بصورة اغرتها برغم ما ينطوي عليه الخاتم من قيمة عاطفية لها.

وتحول إليها تشاريتوس وهو يضع يده فوق يدها وكأنه يريد أن ينسيها فكرة بيع الخاتم وهو يغطيه بيده:

«توني... لماذا تفكرين في بيع الخاتم؟ هل أنت في حاجة الى مال؟»

وأومأت برأسها، واعترفت أنها بحاجة إلى المال، وانتظر صاحب المتجر واسترق السمع، ولكن آماله خابت عندما قال تشاريتوس:

«هذا الخاتم غير معروض للبيع».

واتجه مع توني خارجاً.

«تشاريتوس... يجب أن أفكر في الأمر بعض الوقت».

«لن تبيعي هذا الخاتم، كيف يحدث أن تكوني في حاجة إلى المال. ان زوجك من أغنى الاثرياء في الجزيرة».

«أفرطت في الانفاق، وبعد أن نفدت مخصصاتي، أصبحت مدانة بفاتورتي حسابي».

«ولماذا أصبحت مدانة؟ ولم كانت هذه النفقات؟»

«إنها نفقات سفري إلى انكلترا. ولسبب ما اضطررت إلى تحويل الفاتورة على حساب داروس».

«ولكن لا بد أنه سددها».

وهزت توني رأسها وهي ترغب من كل قلبها أن تضع نهاية لهذا الحديث.

«لقد فهمت أنه لم يسددها. طلبت منه نفقات سفري، ولكنه رفض وصمم على أن أدفعها من أموالي».

ولم يجد تشاريثوس مبرراً لما يفعله داروس. وفي النهاية قال إن خسته، ورفضه قبول المسؤولية عن ديونها هي أكبر دليل على أنه لا يعتبر نفسه متزوجاً. وقال:

«قد يغضب الزوج عندما تسرف زوجته في النفقات ولكن لا بد أن يدفع في نهاية الأمر».

وأخيرا استطاعت توني أن تغيّر موضوع الحديث. لكنه أثناء عودتهما في السيارة، شعرت أنه يجب عليها أن تبيع خاتمها وأن تتحرر من الديون. لقد فشلت في تحقيق هدفها في معاقبة داروس، كما أن الاستمرار في هذه المحاولات أمر مدمر. ومن الأفضل ألا تتمادى في ذلك.

وتوقف تشاريثوس أول الطريق المؤدي إلى منزلها وقال:

«توني... لن تبيعي خاتمك».

«أعتقد أنني يجب أن أبيعه».

«كنت أفكر فيما يمكن أن نفعله... وقد توصلت إلى حل، سوف أشتري الخاتم يا توني، ثم تستردينه بالشراء مني فيما بعد. كنت سأعرض عليك إقراضك هذه الأموال ولكنني أعلم أنك سترفضين...» وأخذ يدها في رفق بين يديه وهو يقول:

«اقبلي اقتراحي يا عزيزتي... إنه اقتراح سليم تماماً».

شعرت توني أنها غير قادرة على الحديث بسبب تأجج عواطفها. ولكنها كانت تفكر هل من المناسب قبول هذا العرض؟ إن تشاريثوس يقترب بسرعة نحوها، وهي لا تريد أن يصاب بأي سوء. إنها لا تعرف حقيقة مشاعرها نحوه. هزت توني رأسها قائلة:

«الأمر سيكون أقل تعقيداً لو بعت الخاتم للجوهرجي.»

وقال تشاريثوس وقد شعر بالمرارة:

«إن ذلك يعني شيئاً واحداً... أنك لست متأكدة من مشاعرك نحوي».

«لست متأكدة... ولكنني أحببتك يا تشاريثوس أكثر مما أحببت أي رجل آخر صادفته في حياتي. ولا أعرف إذا كان هذا حباً حقيقياً، الذي أشعر به نحوك».

وران فترة من الصمت:

«دعيني أشتري الخاتم يا توني. سيكون باقياً لك إذا فكرت في استرداده مرة أخرى. وإذا لم تريدي فسوف تأخذه والدتي».

وابتسم لها، ورأت توني أنه قد يرضخ للأمر إذا لم تتطور مشاعرها ناحيته بالطريقة التي يرضاها. واستطرد يقول:

«لن تشعري بالسعادة عندما تعرفين أن الخاتم أصبح ملكاً لشخص غريب».

«أنا متأكدة من قدرتي على شرائه مرة أخرى. إنه شعور طيب منك يا تشاريثوس، ممتنة لك حقاً. لكن يجب ألا تدفع لي ما عرضه هذا الرجل. إن ما عرضه يزيد كثيراً عن ثمنه الحقيقي».

«ولكن هذا المبلغ سيجعلك تشعرين بالارتياح».

«لا يمكن أن تشتري الخاتم بهذا الثمن».

«توني يا عزيزتي... هذا المبلغ من المال لا يمثل شيئاً بالنسبة اليّ. وإذا كنت في ورطة مالية أرجو أن تعتبريه مرهوناً. وسوف تستردينه يوما ولن أجعلك تدفعين دراخما واحداً كفوائد...»

ولم يكن أمامها إلا أن تستجيب لمشاعره. وبدت عليها ملامح جادة وهي تتوجه إليه بالشكر بعد أن حرر لها شيكاً بالمبلغ فوراً.

«لا أود أن آخذ منك الخاتم. ولكنني أعرفك جيداً الآن، ولا أريد أن أدخل معك في مجادلات».

قال ذلك وهي تناوله الخاتم.

«لا بد أن تأخذ الخاتم وإلا فانني لن أقبل الشيك».

«إنها معاملات تجارية مجردة. أليس كذلك... لا بأس على كل حال. مازلت أحبك...» وطبع قبلة على وجنتيها... وفتح لها باب السيارة لتنزل.

«إلى اللقاء، وأشكرك على كل شيء...»

ولوحت له بيدها وبدأت السيارة تتحرك... واتجهت الى منزلها. وعندما اقتربت من الحديقة شاهدها الأطفال، وتعالت أصواتهم وهم يستقبلونها.

«خالتي توني، بقيت بعيدة عنا فترة طويلة. خذينا معك في المرة المقبلة من فضلك».

وقال ديفيد في براءة الأطفال:

«لم يكن يهمنا وجود العم داروس معنا... ولكنه على كل حال كان في الخارج أيضاً».

وقال روبي:

«دخل الآن لتوه... قبل دقيقة واحدة من وصولك... ولكنه لم يستطع أن يلعب معنا لأن لديه بعض الأعمال».

وذكر ديفيد:

«اتصلت إحدى السيدات هاتفياً، ولم تستطع ماريا أن تفهم منها شيئاً، ولذلك قمت بالرد عليها. وكانت تطلب العم داروس... لكنني قلت لها إنه غير موجود».

«هل كانت تتحدث الانكليزية؟»

«نعم... وسألتها عن اسمها... لكنها قالت إنها ستتصل بالعم داروس فيما بعد».

وأضافت لويس:

«ذكر ديفيد أن صوتها كان رقيقاً... من تكون هذه السيدة يا خالتي توني؟»

«ليس لدي فكرة».

«لا بد أن تكون صديقة للعم داروس... هل ستحضر لمقابلته... هل تعتقدين ذلك؟»

«لا أعرف يا روبي... ربما».

وتجهم وجه توني وهي تصعد إلى غرفتها. ربما تكون اوليفيا. هل سيصفح عنها داروس؛ إنها لوقاحة أن تتصل بخطيبها السابق بعد أن تزوج بأخرى؛ ولكن ربما لا تكون اوليفيا. وفي أي حال فلم الاهتمام!

وبعد أن غيرت ملابسها نزلت توني وأعدت للأطفال الشاي. كانوا يلعبون الكريكيت في الحديقة، ثم دخلوا إلى البيت يلعبون الورق، وأخيراً دخل داروس الغرفة، ودعاه الأطفال أن يشاركهم اللعب.

«حسناً... سألعب معكم دوراً واحداً. حان وقت النوم».

وسأل داروس:

«من يقيد ما نسجله من نقط؟»

وردت لويس:

«ليس لدينا قلم رصاص».

«ولكن ينبغي أن يعرف كل واحد ما سجله من نقط».

وقالت توني:

«ابحث عن قلم يا روبي في حقيبة يدي».

كان القلم بالطبع في قاع الحقيبة. وظهر بعدما أخرجت توني رسائل وايصالات وأشياء أخرى كثيرة لا بد أن تجد طريقها الى حقيبة يد أيّ سيدة...

فسأل روبي:

«هل أعيد الحقيبة إلى مكانها؟»

«لا.. دعها... سأخذها معي عندما أصعد إلى غرفتي».

وبعد مضي عشرين دقيقة أعلن داروس انهاء اللعبة. حان موعد النوم. وظلت توني خلال نصف الساعة التي تلت ذلك مشغولة في إعطاء حمام للأطفال قبل النوم، وعادت توني إلى الغرفة. كان داروس يقف في الشرفة، واستدار في بطء عندما سمعها تدخل. ولاحظت أنه يمسك بيده الشيك الخاص بها.

وقال بصوت ناعم أشبه بصوت النمر قبل أن ينقض على فريسته:

«ما هذا؟»

«انه شيك خاص بي... لابد أنه سقط مني. أشكرك. هل هناك شيء غريب؟»

وسأل كما لو كان يوجه اتهاماً لها وبدا الغضب واضحاً في عينيه:

«ماذا تفعلين بشيك من تشارلتوس ليونيتي؟»

«أعطاني إياه بعد ظهر اليوم... إنه مقابل».

«بعد ظهر اليوم... كنت معه بعد الظهر؟»

«نعم... وماذا في ذلك؟... كنا معاً في رودوس في جولة سياحية».

لو أنها قالت على سطح القمر لما بدا أكثر دهشة

«تقولين إنك كنت مع رجل في جولة سياحية أتتركين ثلاثة أطفال قد يتعرضون

لأي شيء؟»

«عرفت أنت أنني كنت في الخارج»

«قال الأطفال إنك كنت في الخارج لكنني فهمت أنك ذهبت الى ليندروس لتسوّق بعض الحاجيات»

«حسناً.. ولكنني لم أشتر شيئاً. ذهبت إلى رودوس لأول مرة منذ أن وصلت إلى هذه الجزيرة! واسمح لي أن اسألك بأي حق تعترض على ذلك؟»

لم يكن قد اعترض بعد ولكنه كان يعتزم الاعتراض، وبشدة كان هذا واضحا من تعبيرات وجهه.

«كنت في الخارج طوال اليوم»

«قابلت تشاريتوس في الحادية عشرة صباحاً»

«ثم عدت مع موعد الشاي، تركت هؤلاء الأطفال خمس ساعات»

«انهم ليسوا أطفالاً، أعطني الشيك من فضلك»

لم تكن تونى تعرف أن القشور الذي تتحدث به سوف يفجر غضبه. فقد اقترب منها في حنق وهو يستفسر.

«كيف حصلت عليه؟»

وخطرت لها فكرة، قررت فجأة أن تشعره بالعار.

«كان يتعين عليّ أن أحصل على المال من أي مكان، بعد أن تأكدت أنك لن تدفع لي شيئاً..»

وسادت فترة من الصمت، وتصورت تونى لحظة أن داروس سيهجم عليها ويقبض بيديه على عنقها، ثم تحدث داروس أخيراً.

«إنه شيك لسداد شيء ما ... ما هذا الشيء؟»

وتذكرت تونى جده ومرة أخرى رأت الشرر يتطاير من عينيه وتساءلت..

ترى هل سينقض بيده على عنقها؟

كان يمسك يدها ويلوي معصمها، فصرخت، وتمكنت من التخلص منه.

وقالت:

«اتركني من فضلك»

«ليس قبل أن أعرف كيف حصلت على هذا الشيك، مقابل أي شيء أخذته؟»

«ما دمت قد وصلت إلى استنتاجك أعتقد أنه ليس هناك داع لمزيد من الايضاح، ولا ترفع صوتك، أرجوك»

كانت عينا داروس تتوهجان بلهيب الغيظ وقبضته تشتد في عنف على معصمها ولم تحول وجهه إلى لون قرمزي وقال:

«لو عرفت خطورة ما تفعلين الآن لما تماديت في تحديك لي. وأجبت على سؤالي؟»

«ما هي الاجابة التي تريدها؟ ألمحت أنت فعلاً أنني...»

«حسنا... ألست كذلك حقاً؟»

«إنك شخص بغيض، أي نوع من العقلية تجعلك تصل إلى هذا الرأي؟»

وكادت تونى تصرخ باكية بعدما شعرت بالألم في ذراعها.

«ما الذي فعلته بالآلاف الخمسة التي حصلت عليها؟»

«هذه المسألة تخصني وحدي»

وكان رد داروس على هذه الاجابة أن مزّق الشيك ووضعه على المائدة.

وتحولت تونى بنظرها إلى المكان الذي يؤلمها في رسغ يدها، لكنها لم تشعر أبداً بالخوف، والواقع أنها أحست فجأة أن قلبها يدق في ضربات سريعة، وقال داروس:

«لن تقبلي أي أموال من تشاريتوس ليونيتي أو من أي رجل آخر هل هذا واضح؟»

«أرفض تماماً الاستمرار معك بدون أن يكون معي دراخما واحد في جيبي، وسوف أعمل لأكتسب رزقي»

«تعملين وأنت تهتمين بثلاثة أطفال»

«عندما يعودون إلى بلدهم»

«زوجتي لا تعمل»

وردت بعد أن تفقد صبرها:

«هل كنت في يوم ما لا تمتلك دراخما واحد في جيبك؟»

«أعيش في حدود إمكانياتي، ولا أختزن شيئاً»

ولم تعبأ تونى بما قال، بل أكدت له عزمها على العمل.

«استطيع أن أعمل في ليندروس في متجر السيد انتيميو»

«يبدو أنك قد توصلت معه إلى اتفاق اولي».

«لقد ناقشت الأمر معه. السواح يعجبهم أن يكون المساعدون من الانكليز».

«ولكنني أمنعك من العمل. هل تعتقدين حقا أنني أسمح لزوجتي بالعمل هنا؟ في قريتي؟ لدى صاحب متجر للهدايا التذكارية؟»

«لا تستطيع أن تفعل شيئاً».

«كلا، يا فتاتي. عندما أتصل بالتيميو صباح غد سوف يبحث فورا عن مساعد آخر غيرك».

«لا أستطيع البقاء من غير مال. لا أستطيع حتى أن اشتري لنفسي زوجاً من الجوارب. ولا بد أن تعطيني شيئاً من المال.»

«حسناً جداً... سوف تحصلين على مخصصاتك في الصباح، وسوف تأخذينها بانتظام، ولكن أرجو أن تتدبري أمرك في المستقبل».

ونظرت إليه بدون أن تصدق. انتصرت معلاً. كان انتصارها بادياً على وجهه، وعلت الابتسامة شفتيها، وشعرت توني أن خططها للانتقام منه بدأت تؤتي ثمارها. لكنها البداية فقط، وستكون نفقات سفر الأطفال الثلاثة هي المطلب الثاني لها. وربما تستطيع في النهاية أن تقوم بجولة سياحية في الجزر كما كانت تعتزم من قبل.

كانت توني تصفف شعرها في غرفتها عندما أحست بوجود داروس وراءها، وقالت بصوت أجش:

«ماذا تفعل هنا؟»

وأغلق داروس الباب، وتقدم بخطوات بطيئة داخل الغرفة. ووقف خلف كرسيها يتبسم لها، وتمتم قائلاً:

«طالما أنني سأدفع، فلابد أن آخذ شيئاً مقابل مالي».

وفجأة جذبها ناحيته في عنف محاولا تقبيلها وقاومته. ثم تركها وهو ينظر إليها نظرة ساخرة.

«اخترت تجاهل نصيحتي يا توني. حذرتك، ربما تذكرين. إن صبري لن يطول إلى المدى الذي تتوقعينه. حذرتك كذلك من أن وضع زواجنا يمكن تصحيحه بسهولة. كان ينبغي عليك أن تأخذي حذرك. ولكنك صممت على إثارتي، والآن

ستدفعين ثمن حماقتك».

«تقصد فسخ الزواج».

«نستطيع أن ننسى ذلك...»

«ننسى... معنى ذلك أننا سنبقى متزوجين».

«هل لديك مانع... سوف أصبح سخيفاً أكثر من قبل... المرء يدفع مقابل مسراته...»

«إنك تثير اشمئزازي... لا أريد أن يستمر زواجنا...»

«إنه لأمر سيء... كان ينبغي عليك أن تفكري في الأمر قبل أن تصممي على إثارتي».

وفكرت توني بسرعة، وقررت أن تبلغه بكل شيء. ربما يجد ـ عندما يعرف لماذا أثارته ـ مبرراً لها، ويتركها لحالها.

«داروس... أستطيع أن أفسر لك كل شيء».

«أي شيء... تشارلتوس... هل سمحت له بأن يغازلك... أو ربما أتسرع في استخلاص الآراء. فكري معي. كان الشيك يبلغ كبيراً وربما كان مجرد قرض...»

«تفكيرك شرير خاطيء.. إنني أكرهك».

«بالطبع تكرهينني لأنني أوقفت كل محاولة لك ترمي إلى فرض سيطرة امرأة انكليزية علي... ولكنني ما زلت عاجزا عن فهم البواعث على كل محاولاتك رغم أنك تعلمين أن زواجنا لن يدوم... لو كنت تصرفت معي بطريقة طبيعية... كنا عشنا في سلام معاً. كما يجب أن نفعل من الآن فصاعداً».

كانت توني تقف صامتة هادئة، وكان داروس ينظر إليها كأنه يتوقع اعتداء منها.

«حسناً... ألا تعتزمين إبداء أي مقاومة؟»

«اعتقد أنك تريد ذلك».

«نعم... أفضل ذلك».

«لكي تستعرض عضلاتك كرجل، وتخرج منتصراً. لن أوفر لك هذا الشعور بالارتياح».

وخرجت منتصراً فعلاً...»

وضحكت توني.

«هذا هو ما تعتقده، وسوف تشعر أنك كنت تعيش في وهم عندما تكتشف أنك كنت تغازل أمرأة كلوح الثلج».

«لوح ثلج... يا عزيزتي... لماذا تصرين على الاقلال من قدري؟»

٧ ـ الجبهة هادئة

وخلال الأيام القليلة التي تلت ذلك كانت توني تشعر بالغيظ بينما كان رد فعل داروس مجرد نفاد الصبر الذي يتسم بالملل. ويبدو أنه استسلم نهائياً لفكرة جعلها زوجة حقيقية له...

وكانت توني غالباً ما تتذكر ذلك المشهد في بيت جده... عندما أحس داروس بالاحباط لفكرة الزواج منها باعتبارها الحل الوحيد للمشكلة حيث انفجر غاضباً وقال:

«بحق السماء ماذا أفعل بامرأة كهذه في البيت؟»

والآن، يبدو أنه راغب في الابقاء عليها بقية حياته، ولكنها الرغبة، الدافع التي يتعذر كبته لا متلاكها. لا شك أن هذه الرغبة تشغل اهتمامه الوحيد بها.

كانت توني تنظر إليه وهما يتناولان العشاء وتتساءل لماذا أصبح ذهنها مرتبكاً على هذا النحو! كان يوم عيد في كرياستي حيث ولدت ماريا. وكان البيت كله مضاءً بالشموع. وكانت توني تتعجب من نفسها كيف يسمح داروس بكل هذه البهجة. إن شخصاً له مثل طباع جده كان ينبغي أن يكون وثنياً.

وقال داروس وهو يضحك بدهشة:

«كم هو قليل ذلك الذي يعرفه كل منا عن الآخر يا توني. ولكن من الآن سوف نكتشف بعضنا البعض. أنت مثلاً. إنك تثيرين حيرتي».

وردت عليه بسرعة:

«ولكني كنت جذابة الليلة».

ووافق قائلاً في نبرة ودية:

«إنك جذابة بالتأكيد. قررت منذ فترة بعيدة أنني سأكون سعيداً جداً معك. منذ تحذيري إليك الذي تجاهلته بدون رويّة».

واحمرّ وجهها خجلاً. كان الجو شاعرياً سلمياً. وشعرت توني أنها تأمل لو أن حديثهما لم ينقلب كعادته إلى الشجار.

وقالت توني:

«قلت إنني أثير حيرتك... ما الذي تقصده بذلك؟»

وانتظر داروس حتى انصرف خادمه وأغلق الباب ثم قال وهو يبتسم:

«إنني مدين لك بالاعتذار بالنسبة لمسألة تشاريتوس. لماذا لم تنف عنك الاتهام الذي وجهته إليك؟»

وشعرت بشيء يسد حلقها وفاجأت داروس عندما قالت:

«لقد أهنتني مما جعلني أشعر بالغيظ ولذلك تركتك تفكر أنني لست فاضلة...»

«أهنتك؟ إنني لا أكاد أصدق أنني تسببت في إهانتك».

وتمنت لو أنه لا يستعمل الطريقة المتشككة معها. وقالت:

«إنك لا تحب الانكليزيات، أليس كذلك؟»

«إنني لا أحبهن أبداً...»

«ومع ذلك يمكنك أن تكون متزوجاً من إحداهن؟ إننا لا نستطيع أن نفسخ الزواج الآن كما تعرف».

وقال وهو يرمقها بنظرة غريبة في ضوء الشمعة الخافت:

«أعرف بالطبع. وكما قلت لك وجدت أنك فاتنة».

وقاطعته في غضب:

«وهذا يكفي للرجل اليوناني...»

«ولكنني لست يونانياً...»

«ألا يضايقك أن تكون نصف انكليزي؟»

وضحك داروس ورفع حاجبيه:

«فات الوقت الذي أغضب فيه بسبب زواج والدتي من انكليزي».

ثم نظر إليها طويلاً وقال:

«ولكن... لماذا قدم لك هذا الشيك يا توني؟»

وخفق قلبها. لا شك أن قصة الشيك تثير غضبه:

«بعت خاتمي لتشاريتوس...»

ونظر إلى أصبعها. كانت تضع الخاتم في أصبع يدها اليسرى كخاتم الخطوبة. وسألها:

«بعت خاتمك؟ ولماذا أراد تشاريتوس أن يشتري خاتمك... ولماذا رغبت في بيعه؟»

«لأنني لا أمتلك نقوداً بالطبع».

ومرت لحظة صمت رهيبة قبل أن يسألها داروس في ذهول:

«وهل جعلت تشاريتوس يصدق أنني أمنع عنك المال؟»

«لم يحدث هذا عن عمد. كنت أعتزم بيع الخاتم لبائع مجوهرات في رودوس... ولكن تشاريتوس لم يسمح لي بذلك».

«لم يسمح لك بذلك؟»

وتساءل في دهشة.

«إلى أي مدى يفرض عليك سيطرته؟»

«لا شيء فهمي يا داروس، لا أريد أن نتشاجر».

«إنك تتجهين إلى الشجار. إنك لن تنسي أبداً... ماذا تقصدين بجعل أحد جيراني يعتقد أنني أمنع عنك المال؟»

«تلك المسألة كانت مجرد صدفة. رأى بائع المجوهرات خاتمي وعرض عليّ شراءه. وكان عرضه مغرياً جداً. وهكذا ظن تشاريتوس أنني لا أمتلك أموالاً...»

وصمتت فترة ثم استطردت قائلة:

«هذا كل شيء... عرض تشاريتوس أن يشتريه... و أمل أن أستعيده ذات يوم».

«إنك عصبية... باستطاعتي الآن أن أخنقك بيدي... وأستمتع بذلك... أتشهّرين بي في كل أنحاء الجزيرة، وتجعلين الكل يعتقد أنني أمنع عنك المال...»

«تشاريتوس لن يقول كلمة واحدة لأي شخص... ولماذا يقول؟»

ورد داروس بعنف:

«والدته أكبر كاشفة للأسرار الشخصية في الجزيرة».

ربما عرفت السيدة ليونيتي الآن بالقصة، ولا شك أنها ستروجها مع إضافة مبالغات كثيرة إليها.

وشعرت توني أن صبرها نفد فقالت:

«لا أعتقد أن السيدة ليونيتي سوف تبالغ في سرد القصة، إنك تقول ذلك الآن لأنك تشعر بالغضب، أنا متأكدة أن تشاريشوس لم يذكر هذه القصة لوالدته... وحتى لو قالها لها... فإنها لن تجرؤ على ترويجها أبداً».

ومرت لحظة صمت، وكان داروس يتناول طعامه وهو يرمق توني بنظرة أثارت وميضاً في عينيها وقال:

«لا بد أن تستردي هذا الخاتم فوراً صباح غد، وإذا فعلت مثل هذه الأمور مرة أخرى سوف أكسر عنقك».

ولم تعد توني تحتمل أكثر من ذلك، فانفجرت غاضبة وقالت:

«كل هذه التهديدات بالعنف! لا تنس انني تقاتلت مع جدك!»

«ما الذي تقصدينه بأنك تقاتلت معه؟ وصلت أنا ووالدتي قبل أن تتاح له الفرصة للاعتداء عليك... انتزعت أنا الخنجر منه...»

«إنك لا تعرف كثيراً عما حدث... ظللت أتشاجر مع هذا المجنون عشر دقائق كاملة قبل أن تصل...»

ونسي غضبه وطلب منها أن تروي له كل شيء بالتفصيل:

وروت له توني ما حدث مع جده.

وبدا الندم والأسى على وجهه وقال:

«هل هذا صحيح؟ ولماذا لم تقولي شيئاً. لماذا لم تطلبي شراباً أو غير ذلك...»

«أطلب؟ كان ينبغي عليك أن تقدم لي شيئاً. كان اهتمامك أنت ووالدتك منصباً على جدك فقط وعلى كيفية إبعاده عن السجن. ناضلت وناضلت أدافع عن نفسي ولو لم أكن قوية لقتلني في ثوان بعد أن هاجمني».

ولاحظت توني أن الوصف الذي أوردته لهذا المشهد مع جده جعله يشعر بالغضب من نفسه، وبادرها بقوله:

«إن ما قلته مفاجأة كاملة لي يا توني، ظننت أنا وصلنا في اللحظة التي بدأ

فيها بمهاجمتك. لم تكوني قريبة منه عندما كسرت الباب واقتحمت الغرفة».

وراقبها باهتمام وهي تقول:

«سمعتكما... ورغم ذلك استطعت أن أدفعه بعيداً على الأريكة على أمل أن تدخلا قبل أن يتمكن من مهاجمتي مرة أخرى».

«ولكن لم يبد عليك أنك كنت في محنة وقتها».

«لم تحاول حتى أن تنظر إلي... وكما قلت كان اهتمامكما منصباً على جدك... كانت والدتك تقول له «لن تسمح لك بالدخول في مشاكل» ولكنها لم تعبأ بي...»

وسكتت توني وراح داروس ينظر إليها بعينين ضيقتين، وقال:

«هل قالت أمي ذلك...»

«ربما أكون مخطئة... ولكنها قالت شيئاً بهذا المعنى».

«بالانكليزية؟»

«بالطبع... لا بد أنها قالتها بالانكليزية».

«لا بد أنها قالتها بالانكليزية... بعد أن استنتجت أنك لا تفهمين اليونانية!»

وقبل أسبوع من موعد عودة الأطفال إلى بلدهم، تلقت توني رسالة من والدتها تحمل أنباء خطيرة، ومرة أخرى وجدت توني نفسها في موقف يتطلب منها أن ترسل إلى شقيقتها بعض المال.

وقالت لداروس وهي تتناول معه طعام الافطار:

«أصبح ضرورياً لشقيقتي أن تجري عملية جراحية».

وكان الاهتمام بادياً على وجه داروس وهو يسأل:

«هل هي خطيرة؟»

«والدتي لم تقل ذلك في رسالتها، ولكن يبدو أنها لا تريد أن تقلقني. يا ترى ما الذي سنفعله يا ام؟ الأطفال سيعودون الأسبوع المقبل».

وترددت توني بعض الوقت في أن تفصح لداروس عن الفكرة التي تدور في رأسها. لقد أصر داروس من قبل على أن تستعيد خالتها واعطاها بعض النقود لكنها تلقت منه في الوقت نفسه محاضرة، وتهديداً، وكانت هادئة جداً وخائفة منذ ذلك الحين، وأخيراً تجرأت وقالت:

«أعتقد أنه من الأفضل أن أبقى في انكلترا فترة من الوقت لأهتم بالأطفال...

هل توافق؟»

وردّ في حدة:

«تبقين... ولكنك لا تقيمين في انكلترا؟»

وكانت توني على وشك أن تقول له إنه لا يستطيع أن يمنعها من ذلك ولكنها أمسكت عن القول لسببين، الأول أنها تعتمد تماماً على أمواله، والثاني أنها مدينة له لما قدمه للأطفال من مأكل، وملبس، ومتعة... لقد استمتعوا بأجازة رائعة ولم يبخل عليهم بشيء. وقالت توني:

«إن بام تحتاج المساعدة يا داروس...»

«ألا تستطيع والدتك أن تبقي الأطفال لديها؟»

كان يقرأ رسالة ولكنه نحاها جانباً ووجه كل اهتمامه إلى توني:

«أتوقع أنها تستطيع، ذكرت لي في رسالتها أن الأمر يستوجب ذلك».

ولكن توني أوضحت لزوجها وضع والديها التجاري، وكيف أنه يتعين عليهما أن يكرسا كل وقتهما للمتجر ليوفرا أجر المساعد. وأنه على والدتها أن تأخذ الأطفال معها في بيتها بسبب بعد بيت بام... إلا أن هذا التنظيم قد يسبب أيضاً بعض المتاعب لأن الأمر يستلزم نقل الأطفال إلى مدينة أخرى كما أن بيت والدتها فيه غرفتا نوم فقط..

«غرفتا نوم فقط لا تكفيان لعائلة مختلطة...»

«ربما تنام لويس في الطابق الارضي...»

«أليس هناك شخص آخر يستطيع رعاية الأطفال؟»

وهزت توني رأسها بالنفي:

«ليست لديّ شقيقات أخريات... كما أن هيو غير متزوج».

ونظرت توني متوسلة إلى داروس قبل أن تضيف:

«وأعتقد أنه من الأفضل أن أبقى معهم بعض الوقت عندما أعود بهم إلى انكلترا».

وهز داروسْ رأسه بالرفض نهائياً، وشعرت توني بالغيظ ليس هناك إلا سبب واحد لهذا الموقف المتشدد... لا بد أنه اعتاد على وجود امرأة إلى جواره... وعادت توني تقول:

«إن واجبي يحتم عليّ مساعدة شقيقتي».

«بالتأكيد إنه واجبك، لعل أفضل طريقة للخروج من هذا المأزق في رأيي أن يبقى الأطفال معنا هنا إلى أن تتحسن حالة بام وتستطيع استعادتهم».

وهمت توني أن تقول شيئاً.

«لا تقاطعينيّ يا توني. كان من الصعب السيطرة على الأطفال عند مجيئهم. وسوف يتعذر ضبطهم مرة أخرى».

«ليس لديك فكرة كبيرة عن طريقة تحكمي فيهم».

«ليست لدي فكرة على الاطلاق... لو لم أكن حازماً في السيطرة عليهم لكان حالهم الآن أسوأ مما جاؤوا...»

«إنك ما هرجداً في أشياء كثيرة...»

«اكتبي إلى بام وأخبريها أننا سنبقي الاطفال معنا هنا إلى أن تخرج من المستشفى».

«هل فكرت جيداً؟»

وتذكرت توني كيف أمرها بنقل الأطفال من بيته وقالت:

«لم تحبهم في أول مرة...»

«فزعت في بادئ الأمر من فكرة وجود ثلاثة أطفال أشقياء يفرضون وجودهم عليّ وبدون أي إنذار ولكن ينبغي أن أقول الآن إن لشقيقتك ثلاثة أطفال جذابين. وبعد أن استطعت السيطرة عليهم لا مانع لدي من بقائهم طالما أنهم سيظلون تحت رعايتك. وليس تحت رعاية ماريا التي لديها أعمال كثيرة».

«تركتهم مرة واحدة فقط لماريا...»

«ألا تكفين عن هذه التعقيبات الغبية السخيفة... من المفروض أننا نعالج الآن مشكلة».

«سوف أكتب رسالة اليوم لبام وأخرى لوالدتي التي لا بد أنها تشعر بالقلق لعدم عودة الأطفال، إنهم سيبقون بعيداً عن المدرسة خلال وجودهم هنا، وأرجو ألا يطول ذلك».

«ولكنهم سيذهبون إلى المدرسة هنا...»

«هنا، ولكنهم لا يفهمون اللغة...»

«إذن، إنها فرصة ممتازة لكي يتعلموها، وماذا عن المال؟ شقيقتك ستحتاج إلى بعض منه... أرجو أن تبلغيني بالمبلغ الذي تريده وسوف أقوم بتحويله الى البنك في انكلترا».

ولم يكن أمام توني إلا أن تحدق فيه ولا تصدق ما ترى وتسمع. فالزوج الذي كان بخيلاً جداً، أصبح الآن راغباً في دفع المال من أجل راحة وسلامة امرأة لم يقابلها من قبل، وهذه المرأة واحدة من القبيلة الانكليزية التي يكرهها.

وعندما استطاعت الكلام قالت في ذهول:

«أستعطيني المال اللازم لشقيقتي؟»

«في الوقت الذي أمنعه عنك... أليس كذلك؟»

«بالضبط...»

«ولكنك طلبت بعد ذلك».

وربت على خدها فقالت:

«أنا زوجتك».

«الآن نعم... ولكن قبل ذلك لم تكوني زوجتي، سماتك تدل على أنك فتاة عنيدة شديدة الرأس... ولكن كما قلت لك في الليلة السابقة إن تصرفاتك تحيرني جداً».

واقترب داروس منها في مودة بالغة، وأحست توني لأول مرة بمشاعر غريبة تجتاحها. كانت تنظر إليه وهو يحدق في عينيها ثم انتقل بنظراته إلى شعرها وخديها وأحنى رأسه يعانقها لأول مرة بدون شهوة ولا رغبة. وقالت بسرعة:

«داروس سأكتب إلى شقيقتي بام اليوم، وإلى والدي أيضاً...»

«نعم يا عزيزتي... ذكرت لي ذلك من قبل...»

«هذه الرسالة ستجنبهم القلق...»

«فعلاً...»

«الأطفال سيشعرون بالبهجة عندما يعلمون...»

«بلا شك...»

وقاطعها قائلاً وهو يضحك:

«توني ... هذا الحوار قد يستمر الى ما لا نهاية، إذا أردت ان تلحقي بالبريد عليك

أن تكتبي الآن فوراً».

وتابعته بعينيها وهو ينصرف، تغيّر داروس كثيراً، ولا بد أن هناك سبباً لذلك. «قالها لي مرات عديدة: إنني أحبك». وبدأت توني تكتب رسالتها وهي تشعر بالسعادة. نسيت ملاحظاته البغيضة عن الفتيات الانكليزيات، ونسيت تعهدها بالانتقام منه، بل صفحت عن كل تهديداته العنيفة.

وجاءها الرد من شقيقتها بعد أسبوع، وقرأته لداروس، ولاحظت أن الاهتمام يبدو عليه كلما استمع الى فقرات من الرسالة تقول:

«إنها أخبار مدهشة يا توني، أرجو أن تبلغي زوجك امتناني له. لقد ذكر لي الطبيب من قبل أن العملية الجراحية عاجلة جداً. ولكنني اضطررت الى تأجيلها بسبب الأطفال. أما الآن فإنني أستطيع أن أتوجه إلى المستشفى فوراً. ان زوجك بالتأكيد شخص لطيف. لقد قررت أن أوفر بعض النقود عندما أعود إلى العمل لأتمكن من زيارتك في العام المقبل».

وتوقفت توني عن القراءة وقد شعرت بغصة في حلقها، بام متفائلة جداً أو ربما تحاول إدخال البهجة الى نفسها، فلن تستطيع أبداً ادخار أي أموال لتغطية نفقات السفر جواً لأربعة أشخاص.

ويبدو أن داروس كان يفكر بالطريقة نفسها كما كان واضحاً من السمات التي بدت على وجهه. ثم استأنفت توني قراءة الرسالة.

«أما بالنسبة إلى المال الذي يرغب داروس في إقراضه لي فإن عشرة جنيهات ستكون كافية. أريد فقط شراء بعض الأشياء المتواضعة أخذها معي إلى المستشفى».

وتوقفت توني وتركت الرسالة تسقط على المائدة وقالت:

«ألا ترى أنها شجاعة حقاً... إنك لا تعرف كم عانت منذ وفاة زوجها».

«أستطيع تصور ذلك...»

ثم أمسك الرسالة في يده وأعاد قراءتها.

«هل قلت لها إنني أعتزم إقراضها فقط؟»

«لا...»

«لا بد انها فهمت خطأ».

«ليس خطأ أساءت الفهم عن عمد، حدثتك من قبل عن عزة نفسها. إنها لا تريد ان تأخذ أموالاً مني. وكان عليّ أن أشتري هدايا للأطفال».

«ولكن لا بد من إقناعها بالحصول على بعض المال، وبالتأكيد أكثر من عشرة جنيهات».

«لكنها سوف تصر على تسديدها».

«سنفكر في ذلك فيما بعد. ما هو المبلغ الذي تحتاجه في رأيك وسوف أقوم بتحويله الآن فوراً».

وسكت لحظة ثم قال وقد بدأ التفكير العميق في عينيه:

«أعتقد في أي حال ـ انه باستطاعتك زيارتها في المستشفى، وإحضارها معك لمجرد أن تكون قادرة على ذلك».

وفوجئت توني بما سمعت ونظرت اليه عاجزة لفترة عن النطق بكلمة واحدة. ثم قالت في دهشة:

«أحضرها هنا؟ أتعني ما تقول؟ ستدفع لها أجرة السفر؟»

«بام ستحتاج لفترة من النقاهة! وسوف تستفيد أسرع من الطقس هنا ومن هواء البحر. كما أنها ستكون مع أطفالها...»

وهزت توني رأسها في حيرة شديدة، وتمتمت بكلمات تعني بها أنها لم تعد تفهمه أبداً...

ورد قائلاً وهو يبتسم:

«وهكذا أصبحنا متشابهين. لأنني أنا أيضاً لا أفهمك...»

كان لابد أن تعترف أنها اتسمت بكل الصفات التي يكرهها أي رجل. كانت طماعة متحذلقة وقحة... أسرفت في النفقات بدون اكتراث وأرغمت داروس على دفع ما لم تستطع أن تأخذه منه بأية وسيلة. تعمدت أن تحرجه أمام أصدقائه رجال الأعمال. وأحضرت إلى المنزل ثلاثة أطفال تتعذر السيطرة عليهم. وكان هدفها الوحيد من ذلك مضايقته.

ولكنها كانت تتسم بصفات طيبة أيضاً. كان واضحاً أنها تحب الأطفال وتهتم بشقيقتها بام وبأبويها. ثم كان هناك سلوك توني الذي تغيّر نحو زوجها. لا بد أنه لاحظ طريقتها اللطيفة. فلم تعاديه أو تتحداه. ولكن ربما لم يعلم مشاعرها

العميقة نحوه وظل يراقبها وهو يبتسم. وكانت هي تفكر في كل شيء وتستعرض ذكرياتها معه منذ لقائهما الأول. أليس من الأفضل أن تبدأ معه صفحة جديدة؟ وان تعترف له بأنها تفهم لغته. ولكن كيف سيكون رد فعله عندما يكتشف ذلك. إنه يعتز بنفسه وربما يضايقه ان يعرف ان توني كانت تفهمه. وقررت توني ألا تبوح له بذلك. سوف يأتي الوقت الذي تتحدث فيه باليونانية إذا قدّر لها أن تعيش معه بصفة دائمة. وهكذا يبدو الأمر طبيعياً. فإن داروس سوف يستنتج أنها تعلمتها بالاختلاط مع الريفيين من سكان ليتدروس كما تفعل الآن.

٨ ـ الحب الآخر

ومع حلول منتصف شهر أيلول سبتمبر، كانت بام في رودوس في رعاية شقيقتها توني حتى تستعيد صحتها كاملة.

«لا أريد منك أن تبذلي كل هذا الجهد من أجلي».

قالتها بام وهي ترى شقيقتها تحضر لها إفطارها وتجلس في سرير كبير أبيض، غطاؤه الساتان الأنيق فوقها، وسكبت توني القهوة لشقيقتها وقالت:

«قال داروس منذ البداية إنك لا بد وأن تنعمي بالراحة الكاملة هنا... وهو يريد دائماً أن تنفذ تعليماته حرفياً».

«أنت سعيدة الحظ يا توني، إنه شخص لطيف».

وجلست توني على حافة السرير إلى جانب شقيقتها تتطلع إلى الأكروبوليس بأسواره المزينة وتنهدت وهي تفكر إن العلاقة التي تربطها بداروس لم تتطور بالطريقة التي كانت ترغبها. صحيح أن داروس ظلّ بضعة أيام بعيداً عن البيت ينجز بعض الأعمال، ولكن عندما يكون معها لا تحس منه بأي تغيير في مشاعره تجاهها. منذ طبع على خدها قبلة تصوّرت أنها مفعمة بالحنان ثم تنبهت إلى وجود شقيقتها بجوارها وقالت:

«صحيح... إنه لطيف».

كان أمراً غريباً أن تتفق مع بام في الرأي بينما هي منذ فترة قصيرةٍ فقط تصوّرت أنه أكثر رجل قابلته حقارة ودناءة وعجرفة.

وبعد أسبوعين، سمح الطبيب لبام بأن تسبح، وخرجت هي وتوني الى

الشاطئ»، تستمتعان بجوه الممتع، كان الأطفال في المدرسة. أما داروس فكان يعمل في البيت. لكنه لحق بهما في النهاية إلى الشاطئ»، وقد ارتدى بنطلوناً قصيراً وقميصاً أبيضَ وأخفى عينيه وراء نظارة شمس قاتمة. كانت توني تنظر إلى شقيقتها وهي تتطلع في إعجاب إلى داروس، كان واضحاً أنها تكنّ له كلّ مودة. ولكن توني وشقيقتها أحستا اليوم ببعض الحيرة والقلق عندما علمتا أن داروس كان بصحبة «امرأة أخرى». علمت توني بهذه الحقيقة في ذلك الصباح فقط من تشاريتوس الذي قابلته صدفة بالقرب من مكتب البريد. فقد بادرها بسؤاله:

«من هذه المرأة التي رأيتها مع زوجك في رودوس؟»

واحمرّ وجهها وتمتمت في نبرات قلقة:

«لا أعرف...»

ولكنها في الواقع كانت تعرف، لأنها سمعت داروس يحدد موعداً على الهاتف مع شخص آخر. وتذكرت توني أن اوليفيا اتصلت به في مناسبات كثيرة قبل سفرها إلى انكلترا لتطمئن على شقيقتها بام... ومنذ عودتها ظلت تتساءل: من يدري لعلهما كانا يلتقيان أثناء غيابها!

وظنت توني لو أنها قابلت أوليفيا فهي تعتبرها الآن غريمتها التي قد تحطم زواجها ذات يوم. وتساءلت توني:

«يا ترى ما شكلها؟»

لا شك أنها تستطيع مواجهتها بطريقة فعالة أكثر إذا عرفت وقدّرت قوة خصمها!

وجاءها الرد من تشاريتوس:

«إنها سمراء، طويلة، جميلة جداً، ألا تعرفينها؟»

وتوقفت توني عن الحديث عندما شاهدت شقيقتها بام تخرج من مكتب البريد. وقالت:

«بام... تعالي لتتعرفي على صديقي تشاريتوس ليونيتي، إنه يقيم في البيت الضخم على سفح التل، البيت الذي أعجبت به عندما كنا نقوم بنزهة يوم أمس».

«نعم أعرفه»

وسأل تشاريفوس:

«اتسمحان لي بدعوتكما لتناول القهوة؟ المقهى هناك يقدم قهوة بالحليب إذا كنتما لا تريدان القهوة التركية».

واعتذرت توني:

«لا أظن أن لدينا وقتاً لذلك. الأطفال سيرجعون إلى البيت قبل عودتنا. ربما نلتقي في وقت آخر».

وانصرفنا ثم قالت بام:

«توني... سمعت ما قاله هذا الشاب».

«عن أوليفيا.. تقصدين؟»

«اذن فأنت تعرفينها؟»

«لم نتقابل أبداً، ولكنها حبيبة زوجي السابقة».

وقالت بام بحدة:

«وما زال يخرج معها؟ لم تذكري لي أبداً كيف تقابلت مع داروس... سألتك مرة وتجنبت الرد عليّ».

وقالت توني في تردد:

«إنها قصة طويلة يا بام، وليست سارة. والحقيقة أنني لا أعرف إذا كان ينبغي أن أروي تفاصيلها لأي شخص».

«ولكن يجب أن تقولي لي. جعلت منها لغزاً. ارحمي فضولي!»

وضحكت توني:

«سأخبرك يا بام في الوقت المناسب»

«وهل أوليفيا طرف فيها؟»

«كلا، ظهرت في الصورة فيما بعد»

«إنك تشعرين بالغيرة منها يا توني، ولا بد أنك تشعرين بالقلق».

كان داروس جالساً على الشاطئ يتطلع إليهما عندما لاحظ بعض القلق على وجه بام، وعندما اقتربت ابتسم لها قائلاً:

«هل هناك شيء يا بام؟ إنك تبدين قلقة».

«كلا... ليس هناك شيء حقاً... إنني أفكر فقط في أن أستأنف مهامي برعاية نفسي

وأطفالي. كانت عطلة مدهشة... واشعر بالامتنان فعلاً لك. ولا أعرف متى سأرد لك كل هذا الدين».

وكان واضحاً أنها تحاول تغيير الموضوع.

ورفع حاجبيه مندهشاً وقال:

«تردين لي؟ إنك لا تدينين لي بشيء يا بام. استمتعنا بوجودك معنا. وبالنسبة إلى عودتك، ليست هناك حاجة لأن تتلقي أبداً. استقر الأطفال هنا، ولا أرى داعياً لنقلهم مرة أخرى إذا لم تكن هناك ضرورة».

«إنه لأمر ضروري حقاً. لا أستطيع أن أعيش متطفلة على أحد يا داروس...»

وقطب جبينه عندما قال:

«هذه الكلمة لا أريد أن أسمعها... نحن أسرة واحدة... وإذا أرادت شقيقتي الحضور إلى هنا، فأهلاً وسهلاً، ولا بد أن تعتبري هذا بيتك يا بام، ولتبقي معنا حسبما ترغبين».

ونظرت إلى توني. لم يكن من الصعب قراءة أفكارها، لا يمكن أن يفعل داروس شيئاً في الخفاء أو شيئاً معيباً... لا يمكن».

وقالت توني لشقيقتها:

«إن ما يقوله داروس صحيح يا بام. لا تعودي الآن... ما الذي تعجلين العودة من أجله؟ إنك لا تعملين الآن. ذكرت أن صاحب العمل أبلغك أنه لا يستطيع الإبقاء على الوظيفة. هل غير رأيه؟»

«كلا، لم يغير موقفه».

ونظرت توني إلى زوجها، كانت تشعر أنه يريد فعلاً مساعدة بام مالياً. ولكنه كان يعرف أن اعتزازها بنفسها يمنعها أن تأخذ شيئاً منه. وكلما كانت توني تفكر في عودة شقيقتها إلى بلدها كلما أحست بعدم تقبلها الفكرة. وفي تلك الليلة قالت توني لزوجها بعد أن توجهت بام إلى فراشها:

«لو كانت بام تستطيع البقاء هنا معنا دوماً».

وأثار رده دهشتها حينما قال:

«كنت أفكر في ذلك. إنها لا تعمل في بلدها، ولذلك فإنه ليس هناك ما يتطلب عودتها».

«كلا... إنها تستأجر بيتاً. لم يكن زوجها فرانك يكسب كثيراً، كما أن إنجابها السريع لم يساعدها على دعم مركزها المالي».

«أستطيع أن أجد لها عملاً في رودوس. من المؤسف ألا يكون لدي في ليتدروس شيء مناسب لها. خاصة أن والدتي لديها منزل جميل جداً هناك على التل».

«والدتك! لم تذكر شيئاً عن هذا من قبل!»

وقال وهو يبتسم:

«أتذكرين الملاحظة التي أبديتها من قبل من أن كلاً منا لا يعرف الكثير عن الآخر. لا تعرفين شيئاً عن أسرتي، وأنا لا أعرف شيئاً عن عائلتك سوى ما أعلمه عن بام وأطفالها».

وصمت داروس فترة لتناول بعض الشراب ثم قال:

«بالنسبة إلى بيت والدتي، إنها تريد بيعه، وباستطاعتنا أن نشتريه بثمن رخيص».

«ولكن بام لا تستطيع الشراء يا داروس. ألا يمكن أن تؤجره والدتك لها؟ ولكن ذلك لن ينفع، بام لا تعمل، وإذا وجدت وظيفة في رودوس لا تستطيع البقاء هنا. ستكون المسافة بعيدة جداً. ما الذي تستطيع أن تفعله؟»

وقال بهدوء:

«أحاول أن أجد حلاً. إذا أمسكت لسانك دقائق».

وقالت برقة:

«آسفة... هل لديك فكرة؟»

وبحثت نظرتها الرقيقة وميضاً في عينيه وقال:

«قلت من قبل إنك تثيرين حيرتي، لكنني وجدتك أكثر من ذلك... إنك مربكة تماماً. لست الفتاة التي تزوجتها. لا أعرف إذا كان التغيير الذي حدث لك هو نتيجة تزويجي أو أنه لم يحدث أي تغيير على الاطلاق».

واحمر وجه توني خجلاً وهي تقول:

«لم يحدث أي تغيير... إنني لا أفهمك».

«ولا أنا... وأعتقد أنك ستفهمين في الوقت المناسب».

وتحول داروس مرة أخرى إلى موضوع بيت والدته.

«أنا مستعد لشرائه من والدتي وتقديمه هدية لبام، ولكن هذا غير ممكن مع شقيقتك».

«لن تقبل ذلك».

وكانت توني تنظر إليه في ذهول وهي تفكر: هل هذا هو الرجل الذي يحتقر كل الفتيات الانكليزيات. الرجل الذي يرفض أن يدفع مائة جنيه نفقات سفر زوجته. صحيح أنه دفع المبلغ أخيراً لكن غضبة وتهديداته لا تتلاءم مع عطفه على بام ومساعدته لها.

وقالت توني:

«إنه لعطف منك يا داروس... ولكن لماذا تقلق نفسك بكل مشكلات شقيقتي؟»

«لأنني واحد يا توني، أصبحت مغرماً بأطفالها الثلاثة... إنهم بحاجة إلى الاستقرار، وهم بحاجة أيضاً إلى رجل يراقب تصرفاتهم. إنهم يتمتعون بروح عالية، وهو شيء هام إذا توافر الانضباط وأنا أخشى أن يرتدوا إلى الوضع الذي كانوا عليه قبل حضورهم».

وقال وهو يبتسم:

«لو كنت أباً روحياً لهم لكان لزاماً عليّ طبقاً للتقاليد هنا أن أرعاهم. هناك سبب آخر يا توني، إنني معجب بشقيقتك وأشعر أنه يجب التخفيف عن أعبائها التي تتحملها بدون خطأ ارتكبته».

كانت توني تقدر مشاعره فالروابط الأسرية في اليونان قوية وكل فرد يعتبر نفسه مسؤولاً عن رعاية أي فرد آخر عندما يواجه عجزاً أو يقع في ضائقة. أما الأب الروحي فإنه يتحمل مسؤوليات أكثر فمن واجبه أن يكفل أطفاله الروحيين إذا لزم الأمر كما قال داروس. إن الشعور بالواجب أمر تلقائي بالنسبة إلى الرجل اليوناني. صحيح أن داروس كان نصف انكليزي لكنه كان يتبع تقاليد أسرة وشعب أمه ويتحدث عن اليونان باعتباره بلده. كانت توني واثقة أن داروس يريد مساعدة شقيقتها بام... وسألته:

«لكن أين الوظيفة التي تناسبها؟ قلت إنه ليس لديك هنا في ليتدروس عمل لها».

«كلا ليس لدي. إنه لأمر مؤسف، ولكن انتظري. بام كانت تعمل في مجال التصوير الفوتوغرافي، وهكذا فقد وجدت لها العمل المناسب...»

«ألديك هنا عمل لها؟»

«لدي صديق هنا يعمل مصوراً محترفاً. وسوف تتركه مساعدته خلال أسبوعين للزواج، إنه يسافر كثيراً، وهو الآن خارج البلد، ولكن الاستوديو الخاص به في حديقة منزله هنا في ليندروس. هو المكان الذي ستعمل فيه بام»

وأحست توني كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عنها. وقالت:

«لا أعرف كيف أشكرك. لم أتصور أبداً أنك عطوف لهذه الدرجة».

ونظر إليها زوجها نظرة طويلة عميقة وقال:

«وأنا أيضاً لم أكن أعرف أنك يمكن أن تكوني حانية إلى هذه الدرجة».

وأحست توني أن هناك تغيراً طفيفاً في مسلك داروس تجاهها. ولكنه لم تبد منه لمحة حب أو حتى مجرد ميل اليها...

وقالت:

«آمل أن توافق بام على خطتك. ويجب ألا يخيل اليها أن هناك شيئاً من الصدقة في هذا الموضوع».

«ليست هناك أية صدقة في هذه المسألة».

«لا بد أنك سوف تقدم لها كهدية جزءاً من الأموال اللازمة للبيت».

«هذا ليس بالكثير... كما أن بام لن تلحظ ذلك لأنها لا تعرف كم تساوي الممتلكات هنا. فهي أرخص كثيراً من انكلترا».

وهكذا لم يعد هناك داع لأن تقلق توني. وبام كانت متحمسة للاقامة في الجزيرة. كذلك شعر الأطفال بالبهجة بسبب المرح الذي يملأ جوانب المكان الذي يعيشون فيه. أما تحولهم إلى أطفال مطيعين فمازال مصدراً لحيرة بام التي قالت لداروس:

«هناك الكثير يا داروس يجب أن أشكرك عليه... فالكلمات لا تكفي».

«لا داعي لهذه الكلمات إذن يا بام. توني سعيدة لوجودك بالقرب منا، وأنا كذلك، كما أن الأطفال يحبون العيش هنا وقد استقروا في مدارسهم».

«حسناً. إنني وان كنت لن أشكرك بكلماتي، فسأشعر دائماً بالامتنان لك في

أعماقي».

وتجاهل داروس هذا.

ثم نهض داروس واقفاً وهو يقول:

«على فكرة يا توني، جوليا ستحضر في نهاية الأسبوع. وسوف تستخدم الغرفة التي كانت مخصصة لجدتي».

وعندما اقترب مساء الجمعة فكّرت توني أن تسأل جوليا عن أوليفيا. قد تحاول التهرب من الاجابة على أسئلتها. وقد تشعر بالحرج. وقررت في النهاية ألا تحصل على معلوماتها عن أوليفيا بهذه الطريقة.

وبمجرد أن وصلت جوليا ـ أحست توني أنها التقت وكوستاس، وفجأة وجدت نفسها على انفراد مع جوليا التي اعترفت لها بكل شيء

«وهكذا فأنتما تعتزمان الزواج».

«كلا... استنتجت ذلك ونحن معاً لأنه ذكر أنه قرر الزواج مني. إلا أن العطلة التي أمضيتها معه انتهت بوداع آخر فقط».

«أنت تقصدين أنه استمتع بك فقط... ما الذي حدث بالضبط؟ هل قال كوستاس فعلاً إنه يريد الزواج منك؟»

«كلا... اعتبرت هذا أمراً مسلماً به... اتصل بي وأبلغني أنه ذاهب إلى بوروس لقضاء عطلته. وطلب مني أن أقابله هناك. وأبلغت أمي بذلك. وتوجهت إلى بوروس لمقابلة كوستاس. كان عطوفاً ومحباً. وعندما طلب مني أن أبقى معه. اعتقدت بطبيعة الحال أنه سيتزوجني في النهاية».

وسادت فترة من الصمت. إن براءة هذه الفتاة أمر لا يصدقه إنسان. إنها لا تتصور كيف تضع جوليا ثقتها في كوستاس للمرة الثانية. وسألتها:

«ولكن ما الذي تعتزمين فعله. ليس باستطاعتك أن تتزوجي ستيفانوس الآن».

«لم يحدث جديد في الأمر...»

«ولكنك لا تحبينه...»

«ولم أحبه من قبل عندما أشار عليّ داروس بالزواج منه».

«جوليا، أنا أعرف أن الأمر لا يعنيني، وأنا أعرف أن ترتيبات الزواج بهذه الصورة

مسألة عادية هنا. ولكنني أنصحك إذا كنت لا تحبين ستيفانوس ألا تتزوجيه لأنك لن تكوني سعيدة معه أبداً».

«لن أكون سعيدة أبداً إلا إذا تزوجت كوستاس».

«إنه محتال عليك يا جوليا... يجب أن تعرفي ذلك...»

«لست الفتاة الأولى التي تقع في حب محتال. ليتك تقابلينه يا توني، سوف تقولين إنه أكثر الرجال وسامة»

«ولكنه ليس وسيماً في داخله، إن ما يخفيه هو الأهم، فالمظهر يمكن أن يخدع كثيراً».

«يمكن في الواقع».

كانت هذه الكلمات صادرة عن داروس الذي دخل لتوه إلى الغرفة وجلس على الأريكة إلى جانب شقيقته، واستطرد قائلاً لزوجته:

«لم أستمع إلى الجانب الأول من حديثكما، حول أي موضوع كنتما تتناقشان؟»

«إنه حديث النساء فقط...»

«هل أخرج؟»

وقاطعته جوليا:

«بالتأكيد لا... لم أرك منذ أسابيع كثيرة، وسوف أبقى هنا خمسة أيام فقط تقابلت مع جدي في كريت وقال إنه استمتع بعطلته معك...»

«أمضى وقتاً طيباً، لكنني لم أستطع تمضية وقت طويل معه. كنت أعمل كثيراً، وأنشغل عنه في الوقت الآخر».

«أنت محظوظ يا داروس، لأنه بإمكانك أن تتسلى في الوقت الذي تشاء. أما أنا فيجب أن أعمل بجد، ولا ألهو إلا عندما آخذ عطلة من دراستي».

«سوف تتسلين وتلهين كثيراً عندما تتزوجين. زوجك ثري بدرجة كافية ليوفر لك الكثير من الخدم».

«ولكنه ليس زوجي بعد...»

«لكنكما مخطوبان يا جوليا».

«نعم يا داروس، إننا مخطوبان...»

«ستيفانوس رجل طيب يا جوليا، وسوف يكون مخلصاً معك، إنه غني وينحدر من أسرة عريقة».

«أعرف ذلك، ولا أفكر في تغيير رأيي».

«أرجو ذلك... رتبت زواجكما في شهر حزيران (يونيو) المقبل عندما تفرغين من أداء امتحاناتك النهائية».

كانت توني تتعاطف معها وتشعر بالقلق عليها فتيات كثيرات مثلها يتجهن إلى الكنائس لمجرد إتمام مراسم الزواج مع شريك الحياة الذي اختاره الوالدان أو أشخاص آخرون يعتقدون أنهم يعرفون من هو الزوج الأصلح. والأمر الغريب بالنسبة إلى توني أن أحداً لم يتعلمْ من التجربة أبداً. ولا شك أن جوليا وزوجها ـ عندما تكبر ابنتهما ـ سوف يتصرفان أيضاً حسب التقاليد ويزوجانها لشخص ربما لم تقابله. أما إذا كانا قد تعارفا من قبل فذلك التعارف يكون عادة البداية والنهاية.

وفي اليوم التالي كانت توني تجلس وحدها مع زوجها حول مائدة الغداء.

«أعتقد أنه من الجرم إرغام فتاة على الزواج من شخص لا تحبه...»

«هل تشيرين بذلك إلى جوليا؟»

«إنها لا تحب ستيفانوس هذا الذي اخترته لها»

«يبدو أنها كانت تكتمك بعض أسرارها. هل أشارت الى أن خطوبتها قد فرضت عليها...»

وأجابت توني بسرعة:

«كلا... قالت فقط إنك قد نصحتها بالزواج من ستيفانوس».

وسادت فترة من الصمت ثم استطردت قائلة:

«وأنت لم تحدثني عنه»

«إنه شاب وسيم، يحب الحياة، ذكي وغني، ما الذي تريده الفتاة أكثر من ذلك؟»

«قد تريد الحب فقط. النساء هكذا، هل تعرف ذلك؟»

ورفع حاجبيه دهشة وقال:

«يبدو أنك تحسين بالموقف تماماً. أعتقد أنك كنت تعتبرين المال هو كل شيء إذا لم تخني الذاكرة»

وعضت شفتها ورفعت عينيها وقالت تدافع عن نفسها:

«كان موقفي مختلفاً».

«نعم يجب أن أسلمّ بذلك».

وانتقل داروس وهو يتطلع بعيداً إلى موضوع جوليا، وقال فجأة:

«ولكن ما الذي قالته جوليا؟ أتصور أنك تعرفين شيئاً عن كوستاس».

وقالت في تحفظ:

«ذكرت لي اسمه».

«ذكرته لك... إنها تعتقد أنها تحبه».

«أنا متأكدة من ذلك».

«ولكنه لا يحبها، وإذا كان جاداً في علاقته فلماذا لم يفاتحني في ذلك أو يفاتح والدتها منذ فترة طويلة».

ولم تستطع توني أن تمسك نفسها عن توجيه سؤال له:

«هل أنت مطمئن تماماً لزواج جوليا من ستيفانوس؟»

«ولكن هل توجهين لي اللوم على ذلك؟»

وهمست توني في صوت خفيف وهي تقول:

«ليس من حقي يا داروس أن ألقي اللوم على أحد ولكن جوليا ليست سعيدة، وأشعر أنه يجب أن تكون حرة لفسخ الخطوبة إذا رغبت».

«وإذن فإنها لم تؤكد نهائياً أنها تريد فسخ الخطوبة؟»

وهزت توني رأسها بالنفي، وأحست أنها تدخلت في شيء لا يعنيها.

«لقد قالت لي فقط إنها لا تحب خطيبها، وأعتقد أنني لا أبوح سراً بهذا الكلام، أنت تعرف أنها لم تحب ستيفانوس».

«إن اليونانيات لا يتزوجن من أجل الحب».

«لعل هذا هو السبب في أن هناك زيجات كثيرة غير ناجحة».

وظهر العبوس على وجهه. كان واضحاً أنه يواجه مشكلة، ثم قال:

«لكني لم أضغط على جوليا».

«هل توافق بأن تقوم جوليا بفسخ خطبتها إذا رغبت؟»

«أرجو أن تبقي بعيدة عن هذا الموضوع يا توني، فهناك شيء لا تعرفينه وإنني آسف... إنه فعلاً أمر لا يخصني».

«بل إنه أمر يخصك بشكل ما. أعتقد أنا نفسي بشكلات شقيقتك، وفي

الظروف العادية سيكون من واجبك أن تهتمي بشكلات شقيقتي».

وتنهد وهو يقول:

«ولكنها ليست ظروفاً عادية يا توني، ومن الأفضل أن تتزوج جوليا من ستيفانوس».

وشعرت توني أنه يعرف كل شيء... بل بدا عليه أنه لا يريد أن يبعد زوجته عن هذه المشكلة العائلية.

«هل ستيفانوس يحب جوليا؟»

وتساءلت نفسها: ترى هل أخطأت بتوجيه هذا السؤال؟ فقد رمقها داروس بنظرة وقال:

«وما الذي يجعلك تقولين هذا؟»

«لا أعرف... إنها مجرد فكرة».

«على أي أساس؟»

وهزت توني رأسها وتلفتت يميناً ويساراً لأنها تحاول التهرب من الرد.

«يبدو أن جوليا أبلغتك بكل شيء».

ولم يسع توني إلاّ أن تومئ برأسها، فالكذب في مثل هذه الظروف لا يجدي، وقال داروس:

«لم تقل لي بطبيعة الحال، بل اكتشفت خطأها عن طريق صديق لي له ابن في الجامعة في [illegible]، وكنت أفضل ان تتزوج جوليا كوستاس، وقد ألححت ان سعادتها أهم من كل شيء برغم أن كوستاس فقير، وستيفانوس غني، لكنه نظراً لأن كوستاس هذا لا يريد الزواج، ولأن أحداً لن يقبل الزواج منها، لم يعد أمامها مجال كبير للاختيار».

«وكان عليك أن تقول لستيفانوس عن... لقد اعتقدت أنك فعلت ذلك... ولهذا السبب عرفت أنه يحبها... لأنه لا بد أن يكون قد تجاوز هذا الأمر».

وأومأ داروس بالإيجاب:

«فاتحني ستيفانوس في الزواج من جوليا، وكان لا بد أن أصارحه بالحقيقة. وقد أصيب بالصدمة بطبيعة الحال، لكنه ما زال راغباً في الزواج منها، إنها فتاة محظوظة جداً، لأن ما فعلته يمكن أن يدمر فرص زواج أي فتاة هنا».

«هل هي محظوظة فعلاً يا داروس؟ هل ستجد السعادة مع إنسان لا تحبه؟»
«إما ستيفانوس وإما أن تبقى عانساً».
«ربما تفضل أن تبقى عانساً».
«الهدف الأساسي لأي فتاة يونانية هو أن تتزوج وتنجب أطفالاً».

وبعد فترة من الصمت أعربت توني عن إعجابها به بسبب قبوله الهادئ للموقف، وقالت له:

«إنك تبدو متفهماً جداً يا داروس، هل أنت متضايق من جوليا؟»

«كنت في بادئ الأمر متضايقاً. لكنني بعد ذلك تصرفت بإيحاء من ذلك الطابع الانكليزي الذي بداخلي، ولدهشتي وجدت انني متسامح، وواقعي أيضاً. الحياة بالنسبة إلى الفتيات اللواتي تخرجن إلى الحياة العامة تختلف كثيراً عن حياة اليونانيات اللواتي يعشن في بيئة مقيدة. إنهن يجدن أنفسهن فجأة يتمتعن بالحرية الكاملة، حرية الوقوع في الحب، والفتيات اللواتي يقضين جانباً كبيراً من حياتهن في حماية الوالد أو الشقيق لا يتمتعن بأية حصانة، إنهن بريئات وبلا تجارب».

كانت توني تستمع إلى داروس صامتة. آراء داروس وتصرفاته الأخيرة معها ومع شقيقتها وأولادها تكشف كلها عن شخصية متوازنة تماماً لم تكن تعرفها من قبل. ليتها عرفت داروس الحقيقي قبل ذلك.

وسألت توني:

«قلت الآن إن أحداً لن يتزوج من جوليا. ولكن لنفرض أن شخصاً آخر أحبها، وبالطبع هي الحب؟»

«لن يتزوجها إذا عرف الحقيقة، ويجب أن يعرفها. لأنها ستكون كارثة لأي فتاة في موقف جوليا أن تتزوج بدون اعتراف كامل. إن باستطاعة زوجها أن يطلقها فوراً».

«أعتقد أن ذلك لا يحدث إذا كان يحبها فعلاً».

«الاصرار على عفة الفتاة ضروري جداً. ولذلك فإن جوليا تعتبر سعيدة الحظ فعلاً عندما وجدت رجلاً متفاهماً مثل ستيفانوس يحبها. لا أعتقد بإخلاص أن هذه الحالة يمكن أن تتكرر مرة أخرى. ولذلك من الحكمة أن تقبل ما يعرض

عليها».

وكان هناك سؤال يلحّ على توني وترغب في الحصول على رد له:

«هل يتوقع ستيفانوس اعترافاً من جوليا نفسها؟»

«لقد قلت لك إنه رجل طيب، وأعتقد أنك توافقينني عندما أقول إنه إذا اعترفت جوليا له فسوف يصفح عنها، ولكنها لو التزمت الصمت فلن يلومها. كما أنها لن تعرف أبداً أنني أفشيت سرّها عنده».

«نعم يبدو أنه رجل طيب. ولكن لماذا لا تتحدث إلى جوليا في هذا الأمر؟»

«لا أرى أي فائدة من ذلك؟ لن تشعر بالراحة بعد ذلك في وجودي. وأنا أحبها جداً يا توني، ولذلك فإن أي توتر في علاقتي معها لن يكون في مصلحتنا».

كان إعجاب توني بزوجها يتزايد يوماً بعد يوم. لقد بدأت تشعر أنه يختلف تماماً عن داروس القديم الذي تزوجته بالقدر نفسه الذي لا حظ به أنها ليست الفتاة التي تزوجها...

واتجهت توني بأفكارها مرة أخرى إلى مشكلة جوليا. ماذا لو قابلتها وفاتحتها في موضوع اعترافها لستيفانوس بكل شيء؟ وجاءت الفرصة وسألتها. وأكدت توني أنها لو كانت مكانها لأبلغته بالتأكيد وبدون تردد.

«إنني متأكدة أنه سيصفح عنك...»

«ولكن ما الذي يجعلك تقولين ذلك. هل قابلته من قبل؟»

«إنه يريد الزواج منك يا جوليا، وربما كان ذلك لأنه يحبك».

«لم يقل لي أبداً إنه يحبني».

«هل أتيحت له الفرصة لذلك؟»

«كلا... لم نلتق وحدنا أبداً».

«حسناً... لماذا لا تنتظرين حتى تكونا وحدكما... وربما تكتشفين أنه يريد أن يتزوجك لأنه يحبك».

وفجأة لاحت ابتسامة على الوجه الجميل للفتاة اليونانية وقالت بنبرات الأمل:

«لم أفكر في ذلك أبداً... وهل تعتقدين حقاً يا توني أنه إذا كان يحبني سوف يتجاوز عن فعلتي؟»

«متأكدة من ذلك. ولكن عليك يا جوليا أن تصممي على الامتناع عن رؤية كوستاس مرة أخرى».

«أبداً لن يحدث... ولكنني لست متأكدة أنك على صواب حقاً... إنه لأمر يدعو إلى الارتياح أن يكون ستيفانوس لا يزال يرغب في الزواج مني بعد أن يعرف. هل تعلمين أنني لا أريد أن يعرف داروس شيئاً عن فعلتي... إنه عطوف كما قلت لك، ولكنه لن يغفر لي ذلك».

«ولكن هل لديك استعداد لأن تحبي ستيفانوس؟»

ومرّت فترة من الصمت قبل أن تجيب جوليا:

«ربما... بعد أن أكون قد نسيت كوستاس... نعم أعتقد أنني سأحب ستيفانوس... سوف أحاول لأنه رجل طيب كما يقول شقيقي».

وهكذا... لاحت النهاية السعيدة لهذه المشكلة. ولكن ماذا عنها هي نفسها؟ ان تحقيق الانسجام الكامل لعلاقتها مع داروس لن يحدث إلا بالحب. وتساءلت توني: هل سيحبها داروس فعلاً؟ إنها لا تتصور ذلك. حياتها كما تراها كئيبة كطريق موحش في اتجاه رغبة لم تتحقق.

٩ ـ حديث الفراشات

واستطاع داروس بكفاءته المعتادة أن يتخذ الترتيبات اللازمة لنقل ملكية بيت أمه الى بام، وأخذت بام المفتاح وبدأت مع توني في التردد على البيت لبحث كيفية طلائه، وتجهيزه بالستائر، واعتزمت بام بعد أن تم شغلوها تماماً أن تسافر الى انكلترا لحزم وشحن أثاثها. وأصبح الأطفال نموذجاً للأدب والطاعة وحسن السلوك. ولم يبد أن ذلك أثر على حيويتهم كما كانت توني تعتقد. أما جورج تارسولي المصوّر الوسيم صديق داروس فقد عاد هو ايضاً الى ليندروس وطمأن بام على وظيفتها لديه واعداً إياها بمرتب مغر جداً جعلها تحلق دهشة. واعترفت بام عندما كانت تصطحب توني وداروس الى منزلها الجديد لرؤيته وتحديد احتياجاته قبل إقامتها:

«لقد تغيرّ حظي في النهاية. إنني لا أصدق ما يحدث حولي».

وشعرت بام بالأمل يتجدد في نفسها وهي تحس أن جميع من حولها يتعاطفون معها، ويقدمون لها هدايا قيمة لمساعدتها على تجهيز بيتها. فقد كانت العادة كما قال زوج شقيقتها أن يقدم كل أفراد الأسرة هدايا لمن ينتقل إلى منزل جديد.

وكانت توني ايضاً تشعر بالسعادة من أجل شقيقتها. لقد انتهت متاعبها بفضل سخاء داروس وكرمه، وطريقته الحكيمة في معالجة الأمور، إنه شخص ممتاز حقاً، هكذا فكرت توني وهي تزهو وتفخر بزوجها.

ولكن برغم أنه كان عطوفاً مع كل شخص آخر - إلا أن سلوكه نحوها ظل فاتراً على حاله. وبرغم أنه لم يعد يحدث شجار بينهما، إلا أن مظاهر العطف لا تبدو من ناحيته. وفي جلسة هادئة في بيت بام قال داروس:

«فلنأمل جميعاً أن يكون الدافع باعثاً على السرور كالحلم تماماً. إنك يا بام سوف تشعرين بالراحة اكثر عندما يتم تجهيز كل حاجياتك. وبعد أن يصبح البيت كما تحبين أن يكون.»

وقالت توني وهي تقدم له فنجاناً من القهوة:

«وعندما يتم تنظيم الحديقة أيضاً.

لقمت بجولة في أنحائها.. وأعتقد أنك لن تستطيعي انهاء هذه المهمة بمفردك. سوف أبعث اليك بستانياً يعمل لديّ مرة أو مرتين كل أسبوع.»

«لا يا داروس، يكفي مافعلته، لا أريد أن تدفع لي أيضاً أجرة البستاني، وفي أي حال فسوف أستمتع بتنظيم الحديقة بنفسي، لأنني لم أمتلك حديقة من قبل.»

«البستاني الذي لدينا لا يجد عملاً كافياً يشغل به وقته.»

ولعله لاحظ أنه مسّ كبرياءها فاستطرد قائلاً:

«وفي أي حال يتعيّن أولاً أن يتمّ تنظيم الحديقة على الوجه السليم، وسيكون من السهل بعد ذلك أن تتوليها بنفسك.»

وسادت فترة صمت وهم يحتسون القهوة في فناء البيت الخالي تماماً. كذلك هدأ الهواء حولهم ولم يعد يسمع من حين الى آخر سوى صوت أوراق شجر الزيتون يداعبها نسيم خفيف، أو صلصلة الأجراس المعلقة حول اعناق الأغنام التي ترعى على سفح التل. وخفت ضوء الشمس بالتدريج وحلّ الظلام على المنطقة.

ونهض داروس واقفاً وهو يقول:

«حان الوقت لنغلق الأبواب ونعود إلى بيتنا. وخرج الجميع الى الشارع تصافح وجوهم نسمات رقيقة من الهواء الرطب المعطر بروائح الزهور. وكان ضوء القمر يضفي على المكان كله غموض الشرق.

والتقطت بام أنفاسها وهي تقول:

«أعشق الأمسيات والليالي هنا.»

وتمتمت توني قائلة:

«وأنا أيضاً. إنها دافئة وخيالية.» والتفتت إلى زوجها الذي كان يتطلع إليها بنظرة كلها عطف وحنان. وفجأة وضع يده على كتفها، وأحست برعشة يده. ومضى الجميع تحت أوراق الأشجار الكثيفة التي حجبت ضوء القمر، وفي تلك اللحظة انحنى زوجها في مودة بالغة وطبع قبلة على وجهها.

وظلت توني لبضعة أيام تتذكر هذه القبلة. كانت في لحظة ما تعلق عليها أهمية كبيرة، وفي لحظة أخرى تلوم نفسها لسخافتها. وكانت تحس أن هذه القبلة مختلفة. لم تكن كقبلاته الأخرى التي تجعلها تحس أنها ليست أكثر من شيء يمتلكه.

ولكن ما لبث أن حدث ما يؤكد قلقها.. فقد رأت بنفسها داروس مع أوليفيا في مكان عام. كانت مع شقيقتها بام في رودوس لشراء بعض الهدايا الصغيرة التي ستأخذها معها الى والديها وشقيقها. وكانت توني قد اشترت هداياها وتمّ تغليفها للسفر. قالت بام:

«أعتقد أن هذا كل ما تريده.»

قالتها بام وهي ترى الهدايا التي اشترتها يقوم بربطها بائع يوناني. وأضافت:

«والدتي ستسعد بهذه الملابس.»

وردت توني:

«نستطيع أن نتناول غداءنا هنا، ما رأيك في مقهى الميناء.»

وعندما كانتا تجلسان معاً في المقهى ترقبان المارة وتنتظران تقديم الطعام لهما، همست بام في أذن توني بكلمات جعلتها ترفع رأسها فجأة وهي تقطب جبينها. واتجهت توني بنظرها إلى الناحية التي أشارت إليها بام. وفوجئت بزوجها وأوليفيا يدخلان المطعم الجديد الفاخر الذي كان يطل على أجمل منظر في الميناء.

والتفتت بام إلى شقيقتها التي كان وجهها يتفجّر غضباً. وسألت:

«هل هذه أوليفيا؟ إنني لا أكاد أصدق، لا يمكن أن أصدق ذلك من زوجك.»

وتطلعت إلى داخل المطعم مرة أخرى وهي تقول:

«خروجهما معاً لا يعني شيئاً يا توني.»

«أتوقع أن تكون هذه أوليفيا، فأنا لم أقابلها أبداً».

وقالت بام في تردد:

«ذكرت من قبل أنه كان مفتوناً بها، وألمحت لي مرة أن هناك شيئاً يحيطه الغموض يتصل بعلاقتك مع داروس. وقلت إنك ستكشفين عنه لي في يوم ما».

وترددت توني فترة قبل أن تقول:

«أنقذني من الموت».

اقتربت بام بمقعدها من توني.

«ماذا قلت؟»

«إنها الحقيقة، ولكن يجب ألا تذكري ذلك أبداً لوالدتي ووالدي.. وبالتأكيد لشقيقي هيو، أرجو أن تعديني بذلك».

«هل أنت جادة فيما تقولين؟»

«إنني جادة فعلاً».

كانت توني تحوم بنظرها داخل المطعم. هل يجلسان الآن في مكان منعزل، سعيدين بلقائهما، بعدما نسيا كل خلافاتهما؟ وتحولت توني بنظرها الى بام، متصوّرة أنها لوفعلت ذلك تستطيع أن تنسى أن زوجها قريب جدا منها مفضلاً صحبة امرأة أخرى عليها.

«سأقول لك كل شيء عما حدث.. ولكن عندما تعديني بألا تذكري شيئا لأي فرد في العائلة».

«إنني أعدك».

«لقد كان الأخذ بالثأر».

وبدأت توني تروي القصة الكاملة لشقيقتها، وكانت تشعر بالارتياح وهي تمضي في روايتها.

وعندما فرغت توني من قصتها قالت بام:

«إنها تبدو كأفلام القتل الخيالية. ياله من شيء مرعب بالنسبة إليك، في الوقت الذي نغفل فيه جميعاً عن الخطر المحدق بك، لا بد أنهم وحوش هنا في الجزيرة».

ونفت توني بسرعة:

«كلا، إنهم ليسوا كذلك، عادة الأخذ بالثأر قوية في بعض القرى النائية فقط

ويشعر الناس هناك أنهم يقومون بواجبهم. إنهم لا يعتبرون عمليات القتل اغتيالاً.. إنه شيء غريب جداً».

«إنه غريب فعلاً...»

وتمتمت بام عندما اقترب الخادم بطعامها:

«وهكذا فإن ما حدث هو نوع من هذه الزيجات؟»

«كان الأمر كذلك بالفعل في بادئ الأمر.. أما الآن فالوضع يختلف».

ولاطفتها بام وهي حائرة:

«وقع كل منكما في غرام الآخر».

«ليست هناك مشاعر عاطفية قوية.. داروس لا يحبني إطلاقاً..»

«ولكنه يا توني لن يستطيع التخلي عنك».

«أعتقد أنه يقدر على ذلك يا بام، إنك لا تعرفين هذا الجانب منه».

وسكتت توني وهي تشعر بالخجل والندم، الغيرة العمياء تدفعها إلى النطق بعبارات مضللة، وبعد تردد بسيط مضت تقول:

«أعتقد أنه لابد لي أن أصارحك بكل شيء...»

«هل تقصدين أن هناك أشياء أخرى؟»

«هناك الكثير..»

وعندما أكملت توني الجوانب المختلفة لقصتها مع داروس قالت بام وهي تحدق فيها:

«يا توني.. لابد أنك جننت حتى تتصوري أن داروس سيكون سهلاً بهذه الدرجة».

«ولماذا؟»

«انظري إلى وجهه، إن رجلاً له مثل هذه الذقن وهذا الفك، لا يمكن أن يفرض عليه شيء».

«لقد ثارت مشاعري عندما سمعت ما قيل عني لدرجة إنني لم أفكر في احتمال مقاومة داروس لي..»

«لابد أنك جننت أو أصبت بالعمى.. ولو كنت مكانك لما فقدت عقلي

وبصيرتي... ولما كنت حاولت اختبار قوة رجل مثل داروس... ولا بد أنني كنت سأعرف على الفور أن بإمكانه التصدر لي».

وصمتت توني، وراحت تفكر في أخطائها العديدة. وتساءلت بام في شك إذا كان داروس تحدث حقاً بسوء عن الفتيات الانكليزيات.

وردت توني في استنكار:

«لقد تحدث بالفعل!»

«لا يمكن أن يكون قد قصد الانكليزيات بالذات... وإلا لما كنت هنا بينكما أليس كذلك؟ تذكري فقط ما فعله من أجلي. بالتأكيد إنه لم يقصد الانكليزيات، ربما خذلته فتاة انكليزية في يوم ما».

وألقت نظرة عابرة إلى توني:

«ربما تكون أوليفيا!»

وأومأت توني برأسها، وأعادت عليها ما كانت سمعته من حديث بين إيفانيا وداروس في حفل العشاء. وأضافت إنها لم تعرف بالضبط سبب الخلاف. ثم أضافت:

«أعتقد أن أوليفيا حاولت بطريقة ما أن تستولي على أمواله، ولا شك انه غضب عندما أحس أنه مخدوع، وفي أي حال يبدو أنه صفح عنها الآن، وهو شيء لم يفعله بالنسبة إليّ...»

وشعرت توني بغصة تقف في حلقها. وأختتمت توني كلامها في يأس وبؤس وهي تقول:

«لقد أحب أوليفيا الآن!»

«هل أنت آسفة على كل ما فعلته؟»

«طبعاً إنني آسفة...»

«إذن تستطيعين أن تقولي له ذلك».

«ليس الآن، فات الوقت، ألا تدركين ذلك؟»

«ألم تفكري في هذا من قبل؟»

«نعم، واقتنعت بفكرة إبلاغه كل شيء غير ان أوليفيا كانت تتصل به هاتفياً

واعتقدت أنه لن يهتم بحديثي».

وأمسكت توني بالسكين والشوكة...

«دعينا نأكل، ولننس الموضوع!»

كانت أصوات موسيقى البوزوكي تنبعث من المطعم. وكان السواح يتجولون بالقرب من الميناء ينظرون إلى السفن التي ترسو هناك بعدما حملتهم إلى مدينة رودوس للبقاء فيها بضع ساعات يمضونها في جولة سياحية قبل أن تقلهم إلى جزر أخرى.

وتحدثت بام بعد فترة.

«إنني لا أصدق أن داروس يمكن أن يفعل شيئاً مخلاً بالشرف. أما أنت فقد بدأت بداية سيئة جداً. إن مطالبتك له بالمال جعلته ينظر إليك على أنك أكبر جشعة صادفها في حياته. لماذا لا تقولين له ماذا فعلت بالأموال؟»

«فكرت في ذلك أيضاً. رأيه في لم يكن سيجعله يصدق أنني منحت هذه الأموال لأحد. والآن فات الأوان، حتى لو صدقني لن يغيّر ذلك شيئاً في علاقاتنا. وكيف يحدث ذلك في الوقت الذي عاد فيه إلى أوليفيا».

«عاد إلى أوليفيا!»

«أنت تعرفين ما أقصده».

وأدركت توني أن بام بدأت تشعر بالتعاسة بسببها. فحاولت أن تشيع جواً من البهجة والتفاؤل بقولها إن داروس قد يغيّر رأيه يوماً ما في أوليفيا وينساها نهائياً. وهكذا نعيش معاً سعيدين.

«نعم... إنني أعتقد أنه قد ينساها في يوم ما. وآمل في ذلك».

وبعد مضي يومين سافرت بام إلى انكلترا. وانشغلت توني تماماً في الاشراف على البيت حتى تستطيع التغلب على حالتها التي تتسم بالتعاسة. كان يتعين إجراء بعض الاصلاحات الطفيفة في جدران البيت، ثم بدأ مهندسو التصميمات عملهم. ومع عودة بام كانت السجاجيد فرشت، والستائر علقت على النوافذ.

وابتهجت بام بالتغييرات التي حدثت في البيت، وقالت:

«إن الأثاث سيصل خلال أسبوعين، وسأبقى معك لفترة أخرى هنا في منزلك».

«لا مانع لدينا أبداً يا بام، أنت تعرفين ذلك، ولكن يبدو أنك قلقة وتودين الانتقال إلى بيتك في أقرب فرصة».

وابتسم داروس لها، وتغيرت تعبيرات وجهه كما يحدث دائماً عندما يشعر بالسعادة.

واستغرقت توني في أفكارها: «داروس وسيم دائماً، حتى عندما تبدو على وجهه الملامح الجافة، لكنه عندما يبتسم يبدو جذاباً بدرجة مدمرة. يا ترى ما هو شكل أوليفيا؟ لم تكن قريبة من توني بالدرجة التي تسمح لها بالحكم على جمالها الذي تحدثت عنه ايفيانا... إلا أن الفتاة طويلة القامة وهي تمشي واثقة من نفسها وكأنها عارضة أزياء».

وقالت بام:

«نعم... إنني أتوق بشدة للاقامة في البيت. يبدو جذاباً جداً بعد أن تم طلاؤه، وأصبحت حديقته منظمة وجميلة، هل لاحظت يا توني أن لدي شجرة برتقال وشجرة تين؟».

وأفاقت توني من أحلامها وابتسمت وهي تقول:

«نعم، لاحظت ذلك، ولديك اثنين من اشجار النخل المعطرة إحداها قرنفلية والأخرى بيضاء، وهناك بوغنفيليه تتسلق الجدران في الشرفة الخلفي».

ولمعت عينا بام وهي تقول:

«إنكما عطوفان جداً معي، إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالسعادة بعد وفاة فرانك زوجي».

وقال داروس:

«من الآن فصاعداً سوف تشعرين بالسعادة دائماً...»

وبرغم أن نبرات صوت داروس كانت رقيقة وهو يرد بهذه الكلمات لكنها اتسمت في الوقت نفسه بالصرامة، ومضى قائلاً:

«ومن الآن أيضاً لن تكون هناك أي مظاهر للامتنان، اشتريت البيت، وتسددين ثمنه بنفسك، والمفروشات من أثاث منزلك، ولم تفعل أكثر مما كان أي شخص آخر

سيفعله».

وعندما انتهى من كلماته التقت عيناه بعيني توني وبدا مندهشاً لما رآه في نظراتها التي عبرت عن كل ما تشعر به من الامتنان نحوه... والعرفان بالجميل لما قدمه لشقيقتها بام. وكانت توني تشعر أنه يستحق كل تقدير منها، لكن ما كان يقلقها هو أن يجد زوجها في نظرتها أكثر من مجرد الشعور بالامتنان. وحولت توني عينيها عنه إلى أن سمعت شقيقتها تقول:

«هذا هو ابني الصغير قادم من المدرسة، هل يمكن أن يتصور أي شخص درجة الشقاوة التي يتميز بها؟»

كان ديفيد هو أول من وصل إلى الشرفة حيث كان الثلاثة الكبار يجلسون يستمتعون بالشمس... بدا الجو بارداً بعض الشيء مع قرب حلول شهر نوفمبر، وقال ديفيد:

«عندنا عطلة غداً، إنه يوم عيد».

ونظر روبي الى والدته نظرة تنم عن الرغبة في الشقاوة.

«هل معنى ذلك أن نحتفل بالعيد طوال اليوم؟»

وقاطعته لويس قائلة:

«إنني أشعر بالجوع الآن، معدتي خالية تماماً».

وردت الأم:

«إنه لأمر سيئ جداً... ولكن يتعين على معدتك أن تبقى خالية حتى موعد العشاء».

وقالت توني وهي تضحك:

«إن راحة المعدة تنفعها...»

وقال ديفيد:

«لا تطلبي شيئاً الآن، أنت تعرفين ماريا، لن تعطيك شيئاً بين الوجبات».

«إنها فترة طويلة من موعد الغداء حتى الساعة الخامسة».

وقالت الأم:

«أخذت معك بعض البسكويت إلى المدرسة».

«ضاعت مني، أو ربما خطفها ميتشيل فانيوكوتيس.

«غير معقول... ميتشيل لا يمكن أن يسرق البسكويت الخاص بك».
«كان يجري ورائي... وأعتقد أنها وقعت من جيبي، ثم توقف عن مطاردتي. وأعتقد أنه رآها تسقط والتقطها لنفسه.»

وقال روبي محولاً الحديث، وموجهاً كلامه الى داروس:
«أين تذهب غداً؟ هل من الممكن أن تقوم بنزهة؟»
«ربما»

وسألت لويس بعد أن نسيت معدتها:
«إلى أين؟»

ورد روبي:
«أفضل الذهاب إلى رودبني، أخذتنا مرة الى هناك انها ممتعة».
«أريد الذهاب إلى وادي الفراش، وما دمت أنا الأكبر سناً. فيجب ان يكون لي الخيار».

واتجهت لويس إلى والدتها وهي تقول:
«ولكنني لم أختر أبداً. إنهم لا يعطونني الخيار مرة واحدة لأنني الأصغر سناً. كما أنني فتاة!»

ورد ديفيد وهو يرفض طلب لويس:
«الفتيات لا يتمتعن بحق الاختيار في اليونان. يفعلن ما يريده الصبيان».

ونظر إلى داروس:
«وهكذا ستذهب إلى رودبني».
«ولكننا لم نذهب أبداً إلى وادي الفراش».

وأبلغهم داروس في هدوء:
«ليست هناك فراشات في هذا الوقت من السنة. إنها تموت في نهاية الصيف».
«كلها تموت؟»
«نعم كلها».

وتساءل روبي:
«وفي العام التالي ماذا يحدث. لا بد أنها تنام فقط».
«في العام التالي تفقس البيوض التي تركتها الفراشات، وتخرج الملايين من

الفراشات الجديدة إلى الوادي مرة أخرى، إن ذلك يحدث دائماً».
«ظننت أن الفراشات تضع يرقات».
«نعم... بطريقة ما... اليرقة تخرج من الفراشة».

وانفجرت بام ضاحكة وهي تقول:
«هذا غير صحيح».

ورد داروس:
«إنه ليس صحيحاً تماماً. ولكن من منا يريد درساً في العلوم الطبيعية. المهم أن الفراشات الجديدة تخرج كل عام، وبعد شهور ثلاثة تموت».

وقال روبي وهو يعبر:
«ولكنني أريد أن أعرف. الفراشات لا تضع يرقات... إنها تضع بويضات»

وقالت توني:
«ثم تتحول البويضات يرقات، وتكبر شيئاً فشيئاً حتى تفقس. ثم ترقد شرنقة حريرية تنسجها بنفسها، ويطلق عليها اسم الخادرة، وهي حشرة في طور يعقب اليرقة. ثم تتخذ لها ملجأ على جذع شجرة إلى أن تنمو وتصبح فراشة في الربيع عندما يصبح الطقس دافئاً مشمساً وجميلاً».

وعندما فرغت توني من وصفها نظرت إلى زوجها فوجدته يتطلع إليها، فابتسمت له. وتسارعت ضربات قلبها، وحولت نظرها بعيداً.

وقال روبي بعدما أحس بالانتصار:
«وهكذا يا لويس أنت لا تستطيعين الخيار الآن، لأن الفراشات لم تخرج بعد من شرنقتها، ولذلك فسوف تذهب إلى رودبني».
«ليس من العدل ألا يكون للفتيات رأي...»

وتدخل داروس قائلاً برقة:
«من الأفضل أن نترك للخالة توني الاختيار...»
«أنا...»

لم يكن ما قاله داروس هو الذي أشاع الاضطراب في توني. بل كانت الطريقة التي ينظر بها إليها. كانت تحمل تعبيراً خاصاً. إنه تعبير لم تلحظه من قبل. كانت بام ترقبها، ثم تطلعت إلى داروس وهي تقول:

«إنها فكرة رائعة... وسوف ينهي ذلك المناقشة تماماً».

«أفضل الذهاب إلى الجبال، وإذا كنت توافق يا داروس فعليك أن تصطحبنا في سيارتك».

«قيادة السيارة لا تتعبني. حسناً جداً. سوف نذهب إلى الجبال».

١٠ ـ العشاء الاخير

وانطلقت السيارة بهم بعد الافطار مباشرة في طريقهم إلى غرب الجزيرة، وعند منطقة اجيوس اسيفوراس توقفوا لتناول المرطبات. وجه القرويّون بعد أن أبدوا مظاهر الترحيب بزوارهم ـ بالفواكه للأطفال، والزهور لتوني و بام. وانطلقت السيارة مرة أخرى والابتسامة على وجوههم، وأخذت الأيدي تلوح لهم وتودعهم.

وبعد فترة أخرى كانوا يقفون على قمة أعلى جبل في الجزيرة. لم تكن هذه القمة عالية جداً ـ إلا أنّ من فوقها يمكن تمييز شواطئ آسيا الصغرى بوضوح.

وتساءل روبي:

«ما كل هذه الجزر التي نراها ياعم داروس، لا بد أن هناك العشرات من الجزر اليونانية».

«هناك المئات يا روبي، لكن بعضها مجرّد قطعة ضخمة من الصخور العارية، وهناك جزر أخرى تنمو فيها الأشجار والنباتات ولا يسكنها الناس».

وسألت لويس وهي تخرج من جيبها قطعة من الشوكولاتة وتفض غلافها:

«ولماذا؟»

وقالت توني مفسرة:

«هناك أسباب كثيرة... ربما لعدم توافر المياه الكافية... وربما لعدم وجود مساحات تصلح للزراعة».

وقال ديفيد:
«ياليتنا نستطيع جزيرة غير مسكونة. هل تأخذنا معك في زورقك يا عم داروس».
«لا قيمة لذلك».
ونظر داروس إلى بعيد ناحية الغرب، وسأل توني:
«هل تعرفين أي جزيرة تلك يا توني؟»
إنها جزيرة كريت، حيث تقابلا ، ولكن ما السبب في أنه أراد لفت انتباهها إلى هذه الجزيرة، وردت توني:
«بالطبع أعرفها».
وابتسم داروس، لأنه أحس أنها شعرت بالاضطراب، لكنه لم يزد على ذلك، وتحوّل بنظره إلى الشواطيء، وتلال تركيا. وبعد دقائق كان الجميع يشاهدون ما تبقى من معبد زيوس القديم القائم على قمة الجبل وإلى جانبه قصر الثامينيز.
وعقبت توني قائلة:
«هناك قصة تروى عن ذلك... لكنني لا أذكرها».
وقال داروس وهو يبتسم ويرى الأطفال التفوا حوله:
«هناك أسطورة قديمة تقول إن كاهناً إغريقياً تنبأ بأن الثامينيز سوف يقتل والده، وحتى لا تتحقق هذه النبوءة ترك الثامينيز جزيرة كريت وبنى قصراً على أعلى جبال رودوس، وهو جبل اتابيروس الذي نراه الآن، وقد بناه هنا حتى يتمكن من رؤية الجزيرة التي أحبها، وهي جزيرة كريت، إلا أن والده ملك جزيرة كريت كان يتوق إلى رؤية ابنه وجاء إلى هنا متخفياً مع بعض رفاقه الذين كانوا أيضاً يتخفون مثله، ولكن الثامينيز ظن خطأً أنهم من القراصنة، وطلب من جنوده أن يقتلوا الجميع، أما هو نفسه فقد قتل الملك، وهكذا تحققت النبوءة».
وسألت لويس:
«هل هذه القصة حقيقية؟»
«كلا، إنها خيالية».
واقترح داروس بعد مضي دقائق أن ينتقلوا إلى مكان آخر.
«من الممكن أن نبقى هنا على الجبال، أو أن نتجه إلى البحر، أيها ترغبون؟»

ونظرت توني إلى ساعتها وقالت:
«لدينا وقت للاثنين معاً».
وهكذا استمر تجوالهم بين الجبال، وكان آخر محط لهم في المنطقة الجبلية عند جبل سميث، الذي لا يبعد كثيراً عن مدينة رودوس، وقد أبدى الأطفال اهتماماً كبيراً بالكهوف أكثر من حطام معابد أبوللو وزيوس. وظلّ الأطفال هناك يمارسون ألعابهم المفضلة إلى أن ناداهم توني وبام لتناول الغداء في بقعة خضراء مكسوة بالمروج تحت ظلال الأشجار.
وبعدما انتهت وجبتهم اصطحبهم داروس في سيارته إلى الشاطيء الجميل إلى اليمين من الطرف الشمالي للجزيرة، وهناك قاموا بجولة حول المدينة القديمة وتناولوا المرطبات عند ميناء منتراكي. وعندما شعر الجميع بالتعب والاستعداد للعودة إلى البيت، استقلوا السيارة مع حلول الغسق إلى ليندوس، كان قمر كبير معلقاً فوق البحر وهم في الطريق الذي يؤدي إلى الشاطيء، وبدا منزل داروس يقبع في مكانه الصخري الطبيعي وظهرت فيللا بام الصغيرة على سفح التل.
وعندما خلت توني إلى نفسها وهي ترقد في سريرها، تمتمت قائلة: «ألسنا سعداء هنا؟» كانت توني لا تزال تعيش هذه اللحظات السعيدة من حياتها عندما جلست على سريرها تنصت إلى كل حركة في الغرفة المجاورة لها، كان اليوم ممتعاً فعلاً، هل أخبر داروس بالقصة كلها؟ إن ذلك لن يحدث معجزة بطبيعة الحال ويجعله يحبها فجأة، لكنه قد يجعله يفهم، ويجد مبررات لسلوكها، وظلّت جالسة في سريرها، تشعر بشيء من التردد، عندما سمعت صوت ماريا تستأذن زوجها في الدخول. كانت تتحدث باليونانية إليه «إن الآنسة أوليفيا اتصلت هاتفياً وتركت له رسالة تطلب أن يتصل بها عند عودته».
وأعربت ماريا عن أسفها لأنها نسيت أن تبلغه الرسالة في وقت مبكر، ونظرت توني إلى ساعتها، إنها العاشرة والنصف فقط، والجميع متعبون، وسمعت داروس يهبط درجات السلم، ومضى وقت طويل قبل أن يعود، وفجأة أحست بمشاعر الغيظ تنفجر داخلها، أجبرها على هذا الزواج، ثم فرض مشاعره عليها. والآن يبدأ علاقة مع خطيبته السابقة. «من الأفضل أن أسمح له بدخول

الغرفة الآن». ولكنها لا بد أن تأخذ حذرها حتى لا تجعله يشعر أنها فهمت كلمات ماريا!

وعندما تقدم خطوتين داخل غرفتها قالت توني:

«إنني متعبة، وأعتقد أنك متعب كذلك، طبت مساءً، وأشكرك على هذا اليوم الممتع».

وقال داروس مستغرباً:

«فاجأتني بهذه الكلمات».

«إنني متعبة يا داروس».

«هل ترفضينني مرة أخرى».

وبدا صوته ناعماً ولكن نبرته دلت على صرامة.

«هذا ليس تعبيراً رقيقاً».

«ولكن هذا أيضاً ليس موقفاً رقيقاً».

وتقدم داروس خطوات أخرى داخل الغرفة، ونظر إليها، كان هناك بريق في عينيها واحمرار في وجنتيها، وأخذ داروس يتطلع إلى جمالها، وسألها:

«ماذا بك يا توني؟»

وتنهدت في نفاد صبر قبل أن تقول:

«قلت إنني متعبة فقط».

وران فترة قصيرة من الصمت، واستدار داروس ونظر إلى الباب خلفه. كان يفكر في شيء، ثم قال:

«إنه لأمر مؤسف، لأنني غير متعب».

«ولكنك قلت إنك متعب، ولذلك عدنا مبكرين».

«جمالك يا عزيزتي يكفي أن ينعشني مهما كنت متعباً».

وفكرت توني فيما يمكن أن تقوله له بدون أن تستسلم؛ من الممكن أن تقول إنها شاهدته مع امرأة أخرى، لكن الوقت ليس مناسباً الآن. داروس ليس غبياً، ولو ذكرت أوليفيا الآن سوف يعرف فوراً أن كلمات ماريا قد فهمتها زوجته بالكامل.

وقالت وهي تحاول أن تقمع غضبها:

«أفضل أن تذهب الآن يا داروس».

«ولكنني أنوي البقاء معك».

«سوف أقاتلك».

ودمعت عيناها حتى بعد أن رددت هذا التهديد العديم الجدوى.

«حسناً. لقد قلت لك من قبل إنني سوف أستمتع بذلك».

وضغط بأصبعه على زر الكهرباء فأصبح الضوء خافتاً.

«إنني لا أعتقد أنك سوف تقاتلينني يا توني».

وضحك وهو يتجه إليها... وهناك عند منحدر التل ترامى إلى سمع توني صوت الضحك. وابتسمت وهي تدخل بيت شقيقتها، وقالت توني رداً على تساؤلات بام عن الأطفال، إنهم هناك على التل، ألا تسمعين ضحكاتهم!

«كنت مشغولة في داخل البيت».

«حولت هذا البيت إلى مكان جميل حقاً. كيف حالك في العمل؟»

«رائع».

كانت بام تعقب بذلك على ساعات العمل القصيرة، وتفهم صاحب العمل موقفها، واستطردت تقول:

«لن أغيّر ساعات العمل أثناء عطلة الميلاد. إذ ربما يبدو ذلك كما لو كنت أسيء استخدام كرمه. إلا أنه كان عطوفاً عندما قابلني في هذا الموضوع. ألا توافقينني يا توني؟»

«فعلاً يا بام، إنني مرتاحة جداً الآن لكل ذلك. كنت أشعر بالضيق عندما أنظر إلى حالك السابق، وخشيت أن تصابي بالانهيار في نهاية الأمر».

وابتسمت بام، عاد إليها جمالها، وبدأت ملامح الحزن تتلاشى عن وجهها.

«لقد كان عملاً شاقاً. ولم تكن تتوافر لي دقيقة واحدة لنفسي. وكان الأطفال قد أخذوا يثيرون قلقي. هناك الكثير جداً يجب أن أشكر زوجك من أجله يا توني. لديه من الفضائل لدرجة أنني...»

وسكتت عن الكلام.

وأكملت توني:

«لدرجة أنك لا تصدقين أنه يتصرف معي بطريقة سيئة للغاية؟»

كان داروس قد توجه إلى أثينا بعد يومين من المناقشات الطفيفة التي دارت بينه وبين توني في غرفتها. ولم تكن توني قد رأته منذ أسبوعين.

وقالت بام:

«إن ما لا أستطيع أن أفهمه هو أنه لو كان يريد أوليفيا ، فلماذا... أقصد... لقد جعل من فسخ الزواج شيئاً مستحيلاً. إنه شيء غير معقول يا توني».

«عادت إليه أوليفيا وهي نادمة. »

«ولكن ذلك لن يقودها إلى شيء.»

كانت توني تنصت إلى أصوات الأطفال في الخارج، غارقة في أفكارها. إنها لا تملك أي دليل على وجود علاقة حب بين زوجها وأوليفيا، إنه مجرد عفو عن خطأ ارتكبته في حقه فتاة، ولكن إذا لم يكن هناك شيء بينهما فلماذا يقبل الالتقاء بها؟

وبدأت توني تفكر بصوت عال:

«لو كان الاثنان يتبادلان الحب، فلابد أن يؤدي ذلك إلى شيء ربما يطلب إليّ داروس الطلاق فيما بعد عندما يتوق جده»

هذه الفكرة في حد ذاتها كانت كالخنجر الذي نفذ إلى قلبها. كيف أصبحت توني تهتم به بهذه الدرجة...

كانت بام تسكب لها الشاي عندما توقفت وهزت رأسها رافضة الفكرة.

«لن يفعل ذلك معك يا توني، أعرف أنه لن يفعل، إنني متأكدة أنه عطوف جداً ولن يؤذيك».

«من الممكن أن يكون قاسيا للغاية معي. كما أنه لا يعرف مشاعري نحوه».

«ألا تعتزمين التلميح له بذلك، مجرد تلميح».

«بكل تأكيد... فكيف سيكون موقفي عندما أتودد إلى رجل لا يعبأ بي! تزوجنا لأنه كان يتعين علينا أن نفعل ذلك... ولم يتوقع أحد منا أن يتبادل العواطف مع الآخر».

كان زواجنا فاتراً. زواج حتمته الضرورة، كنا غرباء ، ووقتها اعتزمنا أن نظل غرباء ، ولكن يجب أن أعترف أن تصرفات داروس ترجع جزئياً إلى خطأ منيه. «جزئياً»

واحمرّ وجه توني خجلاً:

«حسنا... إنني أتحمل كل الخطأ... ولكن ما أحاول إثباته هو أن الموقف من الناحية الأساسية لم يتغير».

«تقصدين أنه لن يجعله يحبك».

«هذا ما أعنيه بالضبط... لكي نحب يجب أن يكون بيننا شيء روحي. ونحن، أقصد داروس لا يكنّ أي مشاعر عميقة نحوي. ولن تكون لديه هذه المشاعر أبداً يا بام، إنني متأكدة تماماً من ذلك».

وصمتت المرأتان فترة من الوقت وهما تنصتان إلى الأطفال يقتربون أكثر فأكثر، وكانت توني غارقة في أفكارها. كيف أصبحت تهتم بداروس إلى هذه الدرجة! برجل لم تبد منه أي كلمة أو عمل ينطوي على عاطفة. ناهيك عن الأمور الأكثر عمقاً!

لقد قبّلها مرتين بطريقة مختلفة... وكانت هذه القبلات تعني الكثير بالنسبة إليها لأنها كانت من النوع الذي تحصل عليه الزوجة كتأكيد لها بأن الرغبة ليست هي البداية والنهاية في العلاقة بين الزوج والزوجة. وفي هاتين المرتين، كانت بدون أن تشعر تبني عليها عالماً من الأمل يتهاوى إلى رماد بسبب أساسه المتداعي.

«ها هم قد حضروا... هل أعددت لهم الطعام.»

قالتها توني وهي تضحك محاولة أن تتخلص من مشاعر الكآبة وبادرتها لويس قائلة وهي تنظر إلى والدتها:

«خالتي توني... إننا لم نعرف أنك هنا».

ومدت لويس يدها لتأخذ واحدة من طبق البسكويت.

«خذي واحدة فقط».

«واحدة!»

«نعم واحدة، إنه غال جداً».

«حسناً، سوف أتناول خبزاً. إنني أحب الخبز اليوناني، لأنه هش ولذيذ».

وهزت بام رأسها وهي تقول:

«كم تغير الأطفال يا توني، أحدث داروس معجزة. لويس كانت ترغب في

هذا النوع من البسكويت منذ سبعة أشهر، ولكنني لم أكن قادرة على شرائه، ولم أكن أيضاً قادرة على إسكاتهما».

وقالت توني:

«داروس لم يصادف متاعب كثيرة معهم».

وابتسمت توني وهي تتذكر ما الذي كانت تعتزمه بوجود الأطفال معها. «أردت أن أضعه أمام اختيار صعب».

ونظرت بام إليها في دهشة شديدة، واستطردت توني:

«كان الهدف في بادئ الأمر هو مساعدتك، لكنني يجب أن أعترف أنهم أذاقوه ألواناً من العذاب، وكنت آمل أن يشيعوا الاضطراب في حياته كلها».

«أنت: كيف تفعلين ذلك يا توني؟ أذكر أنك قلت لي مرة إنهم كلما كانوا أكثر شقاوة كلما ازداد حبك لهم، وساعتها اختلط الأمر عليّ، ما الذي حدث لك؟ كانت الأسرة كلها تعتبرك دائماً الفتاة العاقلة العملية التي لا ترتكب أخطاء كبيرة».

واحمر وجه توني خجلاً وهي تقول:

«لا أرتكب أخطاء أبداً إنني لم أفعل شيئاً غير ارتكاب الأخطاء منذ اليوم الذي تقابلت فيه مع داروس. إن أكبر خطأ ارتكبته هو الإقلال من قدره وقيمته، وكان يفوز في كل مرة».

«وهكذا فإنك لم تفعلي شيئاً غير العراك معه».

«تحسن الوضع بعد ذلك... لأنني لم أعد أنكد عليه حياته».

«لم يكن لديك أي اختيار...»

وضحكت توني:

«أعترف إنني لا أستطيع مجاراة داروس».

«ولكنك قلت إن الأطفال لم يتعبوه كثيراً... فكيف استطاع أن يوقف شقاوتهم، وتعذيبهم له كما تسميها؟»

«لقد ضرب أحد الأطفال بعنف في الدقائق الأولى... لكنه بعد ذلك كانت كلمته كافية لإسكاتهم... كنت أسهر على رعاية لويس أثناء مرضها كما تعرفين... وفي هذه الأثناء تغيّر الصبيان تماماً وأصبحا يطيعانه».

وتنهدت بام وهي تقول:

«إنه يحب الأطفال... هذا هو كل ما في الأمر وطالما ظلت الأمور على ما هي فلن يكون لديك أطفال أبداً».

«لا أتوقع من داروس أن يزيد من تعقيد ظروف زواجنا إذا كان يريد أن يحصل على حريته، هل تعلمين يا بام أنني أشعر بقوة أنه يريد حريته، رغم اقتناعك بالعكس».

وهزت بام رأسها وهي تؤكد:

«لن يفعل شيئاً مخلاً بالشرف».

«ما سيفعله لن يكون مخلاً بالشرف، لأننا لم نعتزم أبداً الاستمرار في الزواج».

«الأمر سيكون مخلاً بالشرف طالما أنكما متزوجان الآن».

وأوضحت بام قائلة:

«وفي أي حال عليه أن يجد مبرراً للطلاق... وهو لا يجد هذا المبرر».

وقالت توني لنفسها «إنها القسوة العقلية». ولكنها استبعدت هذه الفكرة... إنها لا تتصور أبداً أن يقدم داروس لاثبات مثل هذا المبرر للطلاق.

وفي هذه الأثناء جلس الأطفال حول المائدة لتناول طعامهم، وأخذت توني ولوسي تساعدان بام على إعداد الساندوتشات.

وقال ديفيد لخالته:

«سنذهب بعد ظهر اليوم إلى الأكروبوليس على ظهر الحمير، رتبت والدتي هذه الرحلة، إنها تكلف خمسة عشر دراخماً، ولكننا أغنياء الآن، فالأمر لا يهم، لماذا لا تأتين معنا يا خالتي، إنها رحلة لطيفة على ظهر الحمير».

«وضحكت، نعم إننا أغنياء، ومن الأفضل ألا نقتر على أنفسنا. وإنني لأكره أن أرفض طلبات الأطفال، كان كل منهم يحصل على ست بنسات أسبوعياً، لكنها لم تكن تكفيهم، كانوا يتطلعون دائماً إلى هداياك يا توني».

وقالت لويس وهي تلتهم ساندوتشها الأول:

«ولكن علينا أن ندخر الآن. العم داروس يعطينا بعض النقود لننفقها، والبعض الآخر لندخره، اعتاد أن يعطينا هذه النقود كل يوم، أما الآن فإنه يوفرها لنا كل يوم سبت، أحب أيام السبت... حان وقت ذهابنا... هل ستأتين معنا يا خالة توني في رحلتنا على ظهر الحمير؟»

وقالت بام:

«تعالي يا توني، داروس لن يعود إلى البيت اليوم».

«لن يعود قبل المساء... تسلمت رسالة من جوليا. داروس سيبقى مع والدته وجوليا لفترة من الوقت، وتقول إنه سيكون على الطائرة التي تصل إلى هنا في السادسة والنصف مساءً. سيارته في المطار، ولذلك سيعود مع وقت العشاء».

وسألها روبي:

«ألن تحضري معنا يا خالتي؟ ليس هناك أناس كثيرون يركبون الحمير في الوقت الحاضر لأن السواح عادوا إلى بلادهم تقريباً».

«حسنا.. سأجيء معكم».

وقالت لويس:

«آمل ألا أسقط عن ظهر الحمار، الطريق منحدر جداً».

كان الطريق منحدراً وضيقاً فعلاً لفترة من الوقت. وشق الجميع طريقهم عبر الشوارع غير المرصوفة القديمة حتى وصلوا إلى قمة الأرض غير المستوية، وكان عليهم أن يقطعوا ما تبقى من الطريق على أقدامهم.

«إنه منظر بديع».

وقفت توني وبام إلى جانب السور ونظرتا إلى أسفل حيث المدينة البيضاء الصغيرة المعلقة على سفح التل، وهناك بعيداً كانت الدائرة التي تشغل ميناء القديس بولس، وكانت محاطة بالأسوار فيما عدا فتحة صغيرة تسمح بمرور زوارق الصيد. أما الشاطىء الرملي الذي تحف به الأشجار فكان يبدو ذهبياً ومهجوراً. وإلى اليمين كان منزل داروس يبدو داكناً وجذاباً.

ونظرت بام إلى السماء وقالت:

«أعتقد أنها ستمطر، السحب تتجمع، وساد المكان لون داكن».

وقالت توني:

«ربما من الأفضل أن نسرع، الجو ينذر بعاصفة».

ومع ذلك لم تمطر السماء، وظل الطقس دافئاً، وكانت هناك كنيسة بيزنطية صغيرة جميلة بنيت في القرن الثالث عشر ما زالت تحمل فوق أسوارها أجزاء من اللوحات التي كانت تزينها منذ سبعة قرون ونصف.

وجاءهم ديفيد ليبلغهم انه سوف يصعد السلم الحلزوني.

«لن نضل الطريق».

وضحكت توني وهي تقول:

«إنهم يستمتعون بوقتهم... يا لها من طاقة».

وكان الرواق الواسع لمعبد أثينا ليندبا هو الساحة التالية للعب الأطفال... كانوا يجرون من هنا وهناك حتى تقطعت أنفاسهم. بينما ذهبت توني وبام للتطلع إلى بروبيلي وهو المدخل الجميل للمعبد... ثم دخلتا إلى المعبد نفسه أو بقاياه.

«تصوري يا بام أن عمر هذا المعبد ألفا سنة».

وقالت بام:

«المعبد الأصلي بني قبل ذلك بكثير، ألم يكونوا مهرة وفنانين؟»

وظلت بام وتوني تتجولان ساعة أخرى ثم نادت بام أطفالها فحضروا توا.

وسأل روبي:

«هل سننصرف الآن؟ إني أرغب في البقاء بعض الوقت».

«سنحضر مرة أخرى».

«على ظهر الحمير؟»

«إنكم صغار ويجب أن تمشوا على الأقدام».

«حسناً... سوف نمشي في المرة المقبلة».

وبعدما أمضت توني فترة في بيت شقيقتها لمساعدتها على إعداد العشاء، اتجهت عائدة إلى بيتها، وشعرت فجأة أنها ضائعة وحيدة نظرا لعلاقتها غير السوية مع داروس، عذبتها فكرة اعتزامه الطلاق منها ليعيش حياته مع أوليفيا، إن اليونانيين يكرهون الطلاق... ولكن داروس ليس يونانياً، ومع ذلك كانت توني تحس أنه لن يكون سعيداً جداً بفكرة الانفصال عنها برغم أنه قد يلجأ إليها في نهاية الأمر.

وسألت توني نفسها:

«ولكن إذا بقينا متزوجين... فأي نوع من الحياة ستكون حياتنا معا؟ لن يحدث

أي تغيير. داروس سوف يعاملها بكل أدب وذوق ولكن بغير عاطفة، وربما يعتبرها أكثر أهمية إلى حد ما من الأشياء الأخرى التي يمتلكها. هذه هي طريقة الحياة في اليونان. يعيش الرجال في عالمهم، وتعتبر النساء في مرتبة أدنى.

كانت توني ترتدي ملابسها وتتزين عندما رن الهاتف... داروس لن يحضر لتناول العشاء... ونظرت توني إلى نفسها في المرآة وبدت عليها علامات خيبة الأمل الشديدة. وأدركت توني أنه برغم أفكارها المحزنة التي راودتها من قبل كانت متلهفة لعودة زوجها وظل بعيداً عنها أسبوعين. من يدري لعله افتقدها! يالها من غبية... إنه في رودوس ولم يكلف نفسه مشقة العودة لتناول العشاء معها. وأحست توني أن مشاعر الغضب حلّت في نفسها محل الاستياء. وبعد لحظة من التردد اتصلت هاتفياً تشاريتوس، إنه موجود دائماً إذا احتاجته. ألم يقل لها.

«سأبقى دائماً صديقاً لك... إنه حب أفلاطوني... ولكن تذكري أنني هنا».

وقبل تشاريتوس دعوتها وتناولا العشاء معاً على ضوء الشموع. كانت توني قد ارتدت ملابسها وتزينت بكل عناية، وبدت جذابة في فستانها الأخضر الذي كان منسجماً مع لون عينيها.

وظل تشاريتوس يغازلها... وكانت تقول له:

«إن اليونانيين جميعاً يحبون الغزل، ولكن ذلك لا يعني شيئاً. وعندما سمع تشاريتوس هذه الكلمات ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه وهو يقول:

«الأمر يتوقف يا توني على من يكون الشخص الذي يغازلك! لو كان زوجك هو الذي يغازلك لكنت طلبت المزيد منه».

«أنت على حق».

ومضى قائلاً:

«ليس من الصعب عليّ يا توني أن أفهم ما بداخلك. الفتيات الانكليزيات حمقاوات، إنهن يقعن في الحب بدون تحفظ ويجدن أنفسهن عاجزات فيما بعد عن الإمساك مرة أخرى. لو كنت أحببتني بهذه الدرجة لكنت أحسست أنني أسعد رجل على الأرض».

ولم تعقب توني بكلمة واحدة... فاستطرد هو قائلاً:

«لماذا لم يعد داروس إلى البيت؟ هل يمضي وقته الآن مع المرأة الأخرى؟»

واتحشر الطعام في حلق توني، وعجزت عن ابتلاعه، ثم قالت في صعوبة:

«هذا هو ما استنتجته يا تشاريتوس. ليس هناك سبب آخر يجعله على البقاء في المدينة.

«متى سيعود؟»

«لم يقل شيئاً. طلب فقط عدم إعداد العشاء له».

«ولذا استنتجت أنه يتناول العشاء في الخارج؟»

«لا أعتقد أنه سيبقى بدون عشاء. إنه معها يا تشاريتوس. أنا أعرف ذلك».

ولم يعقب تشاريتوس بشيء. وأحست توني أن هذا الموقف المحرج قد يضايقه، وتحولت عن هذا الموضوع تاركة تعاستها محاولة أن تبدو أكثر بهجة.

وتناول الاثنان القهوة في قاعة البيت، ثم ذهب تشاريتوس. وبمجرد أن انطلق بسيارته، سمعت توني صوت سيارة أخرى تقترب من المنزل، ونظرت إلى ساعتها. إن داروس لم يمكث طويلاً مع أوليفيا.

وقطع زوجها عليها تأملاتها وهو يسأل:

«من الذي كان يقود سيارته؟»

وأحست توني بضربات قلبها تدق بسرعة وقالت:

«إنه تشاريتوس... دعوته إلى العشاء... وأنت عدت مبكراً عما كنت أتوقع».

وتقدم داروس بخطى بطيئة داخل الغرفة، وقد اعتلت وجهه علامات التهديد:

«طلبت منك عدم مقابلته».

وبدا الغضب والتهديد واضحين في نبرات صوته وردت توني وهي ترفع رأسها:

«سوف أمتنع عن مقابلته عندما تتوقف أنت عن الالتقاء بتلك المرأة...»

«امرأة؟»

«رأيتك معها في رودوس... كما أن تشاريتوس رآكما معاً... وهكذا فإن ما تستطيع أن تفعله أقدر أنا أيضاً على فعله... سأخرج مع تشاريتوس وتستطيع أن تعتاد على ذلك».

لم تكن توني تعني ما تقول حقاً، ولكن رغبتها في الرد عليه كانت أقوى من الألم الذي أحست به. واستطردت تقول:

«إنك دكتاتور متغطرس. ولكنني لا أخافك. سأفعل ما أشاء من الآن فصاعداً...»

واقترب منها وأمسك بذراعيها وهو يقول في عنف:

«ستفعلين ما أطلبه منك. وإنني أقول لك مرة واحدة فقط يجب ألا تقابلي هذا الرجل مرة أخرى. وإذا أهملت هذه النصيحة سوف...»

«نصيحة!»

«إنه أمر لك. وإذا أهملته، سوف تندمين كثيراً»

«العنف مرة أخرى».

قالتها وهي تحدق في عينيه. ثم أضافت وهي تتخلص من قبضته:

«لا أعبأ بتهديداتك».

«إنك تسعين وراء العنف. أعرف كيف أضعك في مكانك المناسب مرة واحدة وإلى الأبد».

«في مكان المرأة اليونانية».

وسكتت توني، ونظرت إليه في خوف، انتظاراً لرد فعله العنيف... إلا أنه قال في هدوء.

«تصورت أنك تفهمين اليونانية. ومعنى هذا أنك سمعت كل كلمة قلتها في منزل جدي...»

«لو كنت أفهم اليونانية... فلابد أنني استمعت إلى ما قلت...»

«لم أكن متأكداً من درجة فهمك لليونانية...»

وشعرت توني بشيء من الراحة... صحيح أن دقات قلبها ما زالت تتسارع... وأن غضبها يؤثر على نبضاته. إلا أنها بدأت تهدأ تدريجياً.

واستطرد داروس قائلاً:

«من الواضح أنك فهمت، ما دار بيني وبين ايفيانيا. لقد زل لسانك مرة أو مرتين، ولو أنني لم أدرك أنك تفهمين اليونانية لكنت غبياً حقاً، ولكنني آسف لأنك سمعت كل ما دار».

«لم يكن ذلك صحيحاً. إن بام ترى أنك لا تقصد أي شيء من ذلك».

«هل أبلغت بام؟ هل تعرف كل شيء؟»

«كانت بام معي عندما رأيتكما في رودوس».

ودمعت عينا توني، واغتاظت من ضعفها، ومضت تقول:

«وكان علي أن أقول لها كل شيء».

وهدأت مشاعر غضبه، ولكن كان واضحاً أنه شعر بالضيق بعدما أدرك أن بام تعرف أنه زوج غير مخلص.

وتساءل داروس:

«هل تعتقد بام أنني أحب امرأة أخرى؟»

«وأنا أيضاً... كنا مخطوبين... والآن وجدت أنك تحبها مرة أخرى».

وسكت لحظة ثم قال:

«أنا... لماذا تبكين يا توني؟»

وفجأة اقترب منها داروس وتحدث إليها في نبرات هادئة تتسم بالمودة والعطف والرقة:

«هل تشعرين بالغيرة من أوليفيا؟ ليس هناك مبرر لذلك يا توني... إلا إذا كنت تحبينني!»

ونظرت إليه، وقالت في غضب:

«كلا... لا أحبك... كيف أحب رجلاً...»

ولم تستطع توني أن تتم كلماتها، لأنه كان يضحك، ولكن بدون أن يسخر منها أو يحتقرها هذه المرة.

«كيف تحبين دكتاتوراً متغطرساً؟ هل هذا ما كنت تنوين قوله؟ لست دكتاتوراً يا عزيزتي، ولكنك كنت تثيرين لي المتاعب...»

وفكرت توني ملياً، ما الذي يقوله داروس؟ وما هذه النبرات الهادئة الحلوة التي لا يشوبها شيء؟

«داروس، هل تهتم بي؟»

«أهتم!»

وقبل أن تعرف إجابته، كانت بين ذراعيه.

«إنني أحبك».

وأبعدها عنه في رفق وهو يقول:

«أتساءل يا عزيزتي، هل كان التغيير الذي طرأ عليك نتيجة... للترويض... إنها الكلمة التي استخدمتها من قبل...»

قالت ذلك في استسلام ومع ذلك لم يخل صوتها من نبرة تحد...

«هل هذا ما أحدث التغيير لك... أو أنه لم يحدث تغيير على الاطلاق؛ قلت إنه لم يحدث تغيير... إذا تذكرت...»

«كلا»

وخفضت رأسها واستطردت بصوت خفيض، بعدما صعب عليها أن تعترف أمامه:

«لم يكن هناك تغيير أساسي... فعلت كل شيء لأنني حاولت أن أرد لك الكلمات غير المناسبة التي قلتها عن الفتيات الانكليزيات»

كان داروس يلتقط أنفاسه بين حين وآخر كلما استمرت في اعترافاتها... وأخيراً قالت له أين ذهبت أموال التسوية... ولم يجد داروس مبرراً لتكشفها الأمر رغم أنه أستفسر مراراً عن ذلك...

وردت توني قائلة:

«اعتقدت أن اعترافي لك لن يضيف جديداً لأنك لم تكن تحبني، وأخيراً عندما بدأت تخرج مع أوليفيا...»

وقاطعها قائلاً:

«لم يحدث أن خرجت معها حقاً إلا في هاتين المرتين...»

وبدأ يوضح علاقته بأوليفيا؛

«خطبتها منذ فترة، وفي ثقة كاملة اعطيتها مبلغاً من المال عندما طلبت ذلك بحجة معاونة شقيقتها على الخروج من ضائقة مالية، لكنها كانت تختلس أموال صاحب العمل، وكان يهددها بإبلاغ الشرطة ما لم تعد الأموال فوراً... وأعطيتها النقود... ولم أفكر في استردادها... ولكن الأمر كان خدعة من أوله إلى آخره..أوليفيا لم تكن تحبني... كانت جشعة للمال... وكان كل همها هو استغلال أي رجل غني...»

وصمت فترة ثم قال:

«وكنت أعتزم معا قبتها لو أنني تمكنت منها في ذلك الوقت، لكنها اختفت تماماً، واكتشفت بعد ذلك أنها تحبني، واتصلت بي مرات عديدة طالبة الصفح عنها، وقررت أن أخادعها أنا الآخر حتى أسترد أموالي، وأعطتني إياها في لقائنا الثاني اعتقاداً منها أنني سوف أطلقك بعد وفاة جدي لأتزوجها».

وسألت توني:

«هل قلت لها إنك سوف تفعل ذلك؟»

وهز رأسه بالنفي:

«كانت تعتبر الأمر منتهياً... سمعت إشاعة تقول إن زواجنا كان ضرورة بسبب اعتزام جدي لذلك، وبالتالي اعتقدت أنه من المسلم به أننا لا نتبادل الحب، كانت تعتقد أيضاً أنه بعد عودتها إليّ سأصفح عنها فوراً».

وسكت داروس واقترب من زوجته يعانقها؛

«إن ما لم تعرفيه أبداً هو أنني أحبك جداً. رغم أنك كنت تحاولين إقناعي بأنك أخذت المال لكي تختزنيه».

«كنت أعتزم مصارحتك بكل شيء عنه، لكنني كنت أعتقد أنه لا فائدة من ذلك، كنت أشعر أنك تكرهني، وأنني أستحق كل أفكارك السيئة عني».

«فعلاً... اعتقدت بإخلاص أنني سأضطر إلى استخدام العنف معك في النهاية، لقد أفلت من يدي عدة مرات...»

«وفي هذه الليلة ألم تكن مع أوليفيا؟»

«كلا يا عزيزتي، السبب في تأخري هو عطل في سيارتي، وكان عليّ أن أصلحها، ولما كنت لا أعرف كم من الوقت سيمر قبل إصلاحها، اتصلت بك ألا تعدي العشاء. كنت أعتزم إيضاح الأمر لك... ولكن الاتصال انقطع فجأة».

وسألها:

«وعلى فكرة؛ لماذا دعوت هذا الشخص تشاريتوس لتناول العشاء؟»

«لأنني اعتقدت أنك مع أوليفيا».

«هل هذا انتقام؟»

وسكتت توني... واستمر هو قائلاً:

«إنك خبيثة يا توني... ولا أعرف لماذا ... ولكني أحبك...»

وسألته في لهجة عتاب: «ولماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟»

«لأنني كنت لا أزال أعتقد أنك تختزنين تلك الأموال... وإذا كان هناك شيء أمقته حقاً فهو الخسة والوضاعة. كنت أشعر في بعض الأحيان أنه لابد من تفسير لذلك، وقد توقعت مرة أنك سوف تفاتحيني في الوقت المناسب، ولكنك لم تفعلي».

ثم همس في أذنها في رقة ومودة:

«إنني أحبك ياعزيزتي».

واقتربت منه وقالت في همس:

«وأنا أحبك».